

شوقي

أنطون الجميل



شوقي

تأليف
أنطون الجميل



رقم إيداع ٨٢٧٢ / ٢٠١٤

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٨٠٩ ٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2016 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

١١

أحمد شوقي

١٣

شوقي شاعر الأمراء

٢٣

شوقي عاش شاعرًا، ومات شاعرًا

٢٧

شوقي شاعريته ومميزاتها

شاعر الأمراء

عاش شاعرًا ومات شاعرًا

شاعريته ومميزاتها



شوقي (في العهد الأخير).

أحمد شوقي

بعض مراحل حياته^١

- وُلد أحمد شوقي سنة ١٨٦٨.
- دخل مكتب الشيخ صالح سنة ١٨٧٣.
- خرج من المدرسة الخديوية ودخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٣.
- سافر إلى أوروبا لدرس الحقوق والأدب سنة ١٨٨٧.
- عاد إلى مصر سنة ١٨٩١.
- نُفي في الحرب إلى إسبانيا سنة ١٩١٥.
- عاد من منفاه في أواخر سنة ١٩١٩.

مؤلفاته

- رواية لادياس.
- رواية ورقة الآس.
- رواية علي بك الكبير.
- مذكرات بنتاؤر.

^١ عن كتاب «١٢ عامًا مع أمير الشعراء» لسكرتيره أحمد عبد الوهاب أبي العز.

الشوقيات (الأولى).

الشوقيات - ٤ أجزاء.

رواية كليوباترا.

رواية مجنون ليلي.

رواية قمبيز.

رواية علي بك أو دولة المماليك.

رواية عنتره.

رواية أميرة الأندلس.

أسواق الذهب.

عظماة الإسلام.

رواية السيدة هدى.

رواية البخيلة.

كلُّ إنسانٍ يستطيعُ الثناء، ولكنَّ الأديبَ والشاعرَ، والمفكرين عامةً، يغبطون بانتشار أفكارهم وترديد أقوالهم أكثر من اغتباطهم بالثناء عليهم.

وقد أشار الفيلسوف الألماني نيتشه إلى ذلك إذ قال: «أصغيتُ إليهم لعلي أسمع صدى

صوتي؛ فلم يصل إلى أذني إلا صدى تصفيقهم.»

ولقد حاولنا في هذه الدراسات التحليلية عن «شوقي» أن نسمعَ صدى أقواله،

بالاستشهادِ بالكثير من شعره تأييدًا لما قلنا عنه.

أ. ج.

شوقي شاعر الأمراء^١

ما عرفنا شاعراً صيغ له من قلائد المدح، ونُظِم فيه من عقود الثناء، ما صيغ ونُظِم في شوقي: فهو الملقَّب بأمر الشعراء، وكلُّ قصيدة له تُنعت بالعصماء، وكلُّ منظومة من منظوماته تُعدُّ شوقيةً غراء، كلماته الدر النظيم، ومعانيه الجواهر اليتيم، هكذا تصفه سيرة الصحف، وهكذا يقول فيه رواة شعره.

ولقد استحقَّ الكثير من هذا الوصف: فهو شاعرُ الغزل والنسيب، وناظِمُ الحوادث والتاريخ، صاحبُ الحكم الرائعة والأمثال الذائعة، ترجمانُ العاطفة الوطنية والذائد عن العقيدة الدينية، مُحَيِّي دارس الآثار ومستنهضُ الهمم إلى الأعمال الكبار، الداعي إلى الاتحاد والوئام والمستخلصُ خالد الحقائق من الأحلام.

ومَن كان هذا شأنه يصعبُ أن يتناوله البحثُ في عُجالةٍ موجزة؛ لذلك قصرنا بحثنا اليوم هذا على مظهرٍ من مظاهر شاعريته الجمّة، وهو نزعتُه السياسية وما طرأ عليها من التقلبات.

ولمَّا كان الكاتبون قد أفاضوا في الكلام عن شوقي «أمير الشعراء»، فقد أردنا أن نقولَ كلمةً عن شوقي «شاعر الأمراء»، وما تخيّرنا طرُقَ هذا الموضوع الوعر المطلب، الشاقَّ المسلك يوم تحتفي البلادُ العربية قاطبةً بتكريم الشاعر الكبير، إلا لأنَّ البعض ما زال يهمسُ به همساً دون التعرُّض له بالبحث والتحليل، ويشير إليه من باب التلميح لا من باب التصريح، وإذا كان من مستلزمات التكريم إذاعةُ المناقب، فقد يكون من مستوجباته

^١ نشر هذا البحث في «السياسة الأسبوعية» (٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧) بالعدد الخاص بتكريم شوقي.

شوقي

كذلك دفع بعض التهم؛ ليكون التكريم تاماً كاملاً، لا تشوبه شائبة، وعلى كلِّ فما خلا مخلوقٌ من تهمةٍ مهما علا قدره، بل قد تزيدُ التهمُ حوله كلما علا قدره: كفى المرءَ نبلاً أن تُعدَّ معايبه.

قالوا: إذا لُقِّبَ شوقي بأَمير الشعراء؛ فلأنه كان شاعرَ الأمراء، على قاعدة القلب المعروفة عند العرب.

مدح أقبالَ مصر من إسماعيل إلى توفيق إلى عباس إلى حسين إلى فؤاد، وكثيراً ما ذهب صعوداً من الأحفاد إلى الأجداد، فتطرقَ إلى مدح سعيد وإبراهيم ومحمد علي، بل رجع إلى التاريخ القديم يُقَلِّبُ صفحاته، فيمدح سلاطين مصر وخلفاءها وفراعينها، ويتغنى بمآثرهم ويشدو بأنآثرهم، مُجيداً في مدحهم جميعاً.

وكذلك كان شأنُه مع سلاطين بني عثمان الذين تعاقبوا على عهده: فكما مدح عبد الحميد أطرى رشاداً؛ وكما أطرى رشاداً أشاداً بمحمد الخامس، وكما تغنى بعظمة السلاطين والخواقين، تغنى بأبطال الحرية والدستور العثماني، وكما أطنب بذكر سلاطين الأستانة أطنب بذكر رجال أنقرة.

فكان من وراء ذلك أن اتَّهَمَهُ البعضُ في صحَّة عقيدته السياسية، وشكَّ في نزاهة مبدئه الاجتماعي، وقيلت عنه أحياناً كلماتُ الزلفى والتملُّق، فزعموا أنَّه مدَّاح السلطة، أيَّة كانت السلطة، ومطري القائمين بالأمر، أيُّ كان القائمون بالأمر.

تهمةٌ لا تقومُ على أساسٍ إذا حلَّلنا نفسية شوقي، وتشكُّكُ يضمجُلُ من نفسه إذا نظرنا إلى الحوادث والأحوال التي أحاطت بالشاعر، فحملته على تغيير اسم الممدوح دون أن يُغيِّرَ مطلبه من المدح، وعلى تبديل العنوان دون أن يبدل ما تحت العنوان، فالنصائح هي هي مهما تغيرت المداخل، وهو القائل:

ولي غرُّ الأخلاق في المدح والهوى

خَدَمَ الحرِّيَّة؛ لأنَّه أحبَّها، ودعا إلى الإصلاح؛ لأنَّه لمسَ الحاجةَ إليه، وقال بوجوب نشر العلم ومكارم الأخلاق؛ لأنَّه عرف أنها أساسُ العمران، ومن أجل ذلك خدَم السلطة؛ لأنَّه رآها واجبةً لازمةً لتحقيق جميع تلك المطالب.

لا يصلحُ القومُ فوضى لا سراةَ لهم ولا سراةَ إذا جهَّالهم سادوا

مدح جميعٍ من ذكرنا من الملوكِ والأمراء، ولكنَّه نصح لكلِّ منهم بالإصلاح، واحترام الحرية والعمل على ترقية البلاد، وحسن سياسة العباد، ورفع منار العلم، وهو يرى أنَّ جميع هذه الأمور لا تتمُّ في الشرق إلاَّ على أيدي القائمين بالأمر فيه؛ لأنَّ الإصلاح إذا كان محققًا ولا محالة، كما يقولون، إمَّا من الأعلى وهو التحوُّل، وإمَّا من الأدنى وهو الثورة، فهو يريده عن طريق التحوُّل، أي من الأعلى على يد صاحب السلطان، هذه هي نظريته الاجتماعية، فهو يطلبُ الخيرَ لهذا المجتمع الشرقي عن هذه الطريق.

ولا جالَ إلاَّ الخيرُ بين سرائري لدى شدَّةِ خيريةِ الرغباتِ

يمدُّ الخديو عباسًا، ولكنه يقول له:

لا يُظهر الكبراءُ آيةَ عزِّهم حتى يُعزُّوا آيةَ الأفكارِ

ويذكره وهو يفتتح الجامعة المصرية أنَّ:

ترك النفوس بلا علمٍ ولا أدبٍ ترك المريض بلا طبٍّ ولا آسٍ

وإذا قال لتوفيق:

لك مصرٌ يجري تحت عرشك نيلها ولك البلادُ عريضها وطويلها

فقد قال له في القصيدة نفسها:

كانت خزائن مُلكها بيد البلى
ألقت مفاتيحها إليك فأصبحتُ
نهبًا مباحًا للرقيب دخولها
يزنُ الزمانُ كنوزها ويكيئها

شوقي

وإذا مدح إسماعيل أنصفه في قوله:

لم يرَ الناسَ مثلَ أيامِ نعمَا كَ زمانًا ولا كَبؤسك عهدا
كنتَ إن شئتَ بُدِّل السعدُ نحسًا وإذا شئتَ بُدِّل النحسُ سعدا

وإذا مدح الملك فؤاد عقَّب على المدح بقوله:

إن سرَّكَ الملكُ تَبَيَّنِيه على أُسُسٍ فاستنهضِ البانينَ العلمَ والأدبا
وارفعَ له من حبالِ الحقِّ قاعدةً ومدَّ من سببِ الشورى لها طُنبا

يدعو الأزهريين إلى الالتفاف حول العرش:

كونوا سياج العرش والتمسوا له نصرًا من الملك العزيز مؤزرا

ولكنه يعلق على ذلك بقوله:

وتفَيِّئُوا الدستورَ تحتِ ظلاله كنفًا أهشَّ من الرياضِ وأنضرا

فماذا يهمننا اسم الممدوح؟ وماذا يههم، بنوع خاص، الأجيال القادمة؟ إذا كان المدح ينطوي على مثل هذه العظات والحكم البالغة، فليمدح الشاعر من شاء من الملوك ما دام يقول له:

والعدل في الدولات أُسُّ ثابتٌ يُفَنِّي الزمانَ ويُنفِذُ الأجيالا

أو ما دام يهيب به:

إن ملكتَ النفوسَ فابغِ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مضاءٌ
يسكنُ الوحشُ للوثوبِ من الأُسِّ رِ فكيف الخلائقُ العقلاءُ

ألا يحتاج الشاعر — كما يحتاج الحكيم — إلى الحيلة ليحمل حملته على روح
الاستبداد كما يفعل شوقي مشيراً إلى توت عنخ آمون:

المستبدُّ يُطاقُ في ناووسه لا تحت تاجيه وفوق وثابه^٢
والفرد يؤمن شره في قبره كالسيف نام الشرُّ خلف قرايه

ألا يُعدُّ الشاعرُ أبلغ مرشدٍ وأهدى هادٍ — في مدح الملوك — إذا عرف أن يقول
كشوقي:

زمانُ الفردِ يا فرعونُ ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا
فؤاد أجلُّ بالدستور دنيا وأشرفُ منك بالإسلام دنيا
بنى «الدار»^٣ التي لا عزَّ إلا على جنباتها للمالكينا
ولا استقلال إلا في ذراها لمتبوعٍ ولا للتابعينا

أليس من البراعة أن تمدح المرءَ بمحمدةٍ لنحببها إليها، وأن تدمم له منقصةً لتكرمه
فيها؟ أليس ذلك ما فعله شوقي في قوله للسلطان محمد رشاد:

جددت عهد «الراشدين» بسيرة نسجَ الرشاُد لها على منواله
بُنيت على الشورى كصالح حكمهم وعلى حياة الرأي واستقلاله

وفي قوله:

وإذا سب الفردُ المسلطُ مجلساً ألفت أحرارَ الرجال عبيداً

^٢ الوثاب: السرير الذي لا يبرح الملك عليه.

^٣ دار النيابة.

بمثل هذا مدح شوقي الملوك والأمراء، متخذاً المديح في أغلب الأحيان وسيلةً لطلب العدل والإنصاف في الرعية، ولتمجيد الشورى والحرية، كما رأيت في ما ذكرنا وما تجد منه الشيء الكثير في سواه.

وهكذا لم يغيّر عقيدته السياسية ومبدأه الاجتماعي، فهما هما في جميع مدائحه، وإن تبدّل اسمُ الممدوح، والشاعر شاعرٌ أيّاً كان الرويُّ الذي يختاره لقصيدته، ما دامت نفسه حساسةً وقريحته فيأضةً، وهل اسم الممدوح في جميع ما ذكرنا سوى الرويِّ؟ وقد قال هو نفسه:

جلالُ الملكِ أيّامٌ وتمضي ولا يمضي جلالُ الخالدينا

ونعتقد أنه لا بدُّ من شجاعةٍ في النفس للإقدام على ذلك، كما أنه لا بدُّ من كثير من البراعة والمرونة واللباقة لهذا التغيير في الشكل دون التغيير في الجوهر، حتى يتمّ ذلك بلا تبجُّح ولا تعصّبٍ للمبدأ الجديد، والتعصّب كما هو معروف، ملازمٌ عادةً لمن يذهبُ مذهباً جديداً في السياسة أو في الدين، وهذا ما عرف شوقي أن يتجنّبهُ، فإذا دعا إلى حكومةٍ جديدة، انقياداً لصوت الشعب، فهو لا يُنكرُ صداقته القديمة، بل لا ينفصُّ يده من يد الذين لا يزالون على غير فكره، وإذا دالت دولةٌ من دول الشرق التي كان لها نصيبٌ من مدحه وتمجيده، فلا يرى وجوبَ النعي والنحيب والامتناع عن مجارة الزمان، بل يبرزُ للدولة الجديدة مُطرياً مادحاً مع دعوةٍ إلى الإصلاح وإلى تحقيق ما لم يتحقّق على عهد سالفاتها، فخلاصة مبدئه: الترحيب بالحاضر مع احترام الماضي، وأتمُّ مثالٌ على ذلك قصائدهُ في الأستانة وأنقرة، ورجالٍ هذه ورجالٍ تلك.

وهكذا يضربُ خيامه في معسكرٍ غير الذي كان ضارباً خيامه فيه بالأمس، ولكن دون أن يحقّ رميه بالجحود، أو اتهامه بالخيانة والمروق.

أأخونُ إسماعيلَ في أبنائه ولقد وُلدتُ ببابِ إسماعيل
ولبستُ نعمتهُ ونعمةَ بيتهِ فلبستُ جزلاً وارتديتُ جميلاً

ومَن نشأ كشوقي في عهدٍ كانت فيه مصرُ بين سلطان الفرد المتأصل في صدور الشرقيين وحكم الشورى النابت في عقولهم، ومَن رَبِّي مثلهُ في قصورِ الأمراء وحلِّ ضيفاً على السلاطين، ثمَّ رأى كيف تنهار القصورُ وتتلُّ العروش، وكيف تُولدُ الثورات فتَهتَرُّ

لها الأعصابُ اهتزازًا، وكيف يقومُ الدستورُ فيسكبُ على القلوب سلامًا ويثير في النفوس اعتزازًا، ومَن عرف كشوقي نعيم الحياة وبسطة الجاه، ثم ذاق ألم النفي والإبعاد، لا يُستكثِر عليه أن يعرف كيف يرتفعُ فوق الأشخاص ويسمو عن العرَض الزائل إلى الجوهر الخالد، فيمدح الملكَ لخير المملكة، ويمجّد السلطانَ لخير السلطنة؛ لأن تجارِبَ الزمان زادت في استقلال عقله ووسعت دائرته للإحاطة بكل فكرة سامية. فإذا رأى في تلك الفكرة فائدةً لذلك الشرق الذي تغنى به، فلا يتأخّر عن الإشادة بها، ولو كانت من الأفكار التي لم يقلُ بها فيما مضى، وهو في ذلك ليس بالجاحد ماضيه، ولا بالمنكر عقيدته، بل هو من طائفة الرجال الذين هدّبهم الدهرُ وثقّفهم، فأصبحوا يحدبون على وطنهم، ويتألمون لألامه، فيطلبون له النجدة من أي جانبٍ بدت، ولو من جانب الأفكار التي كانت بالأمس مغايرةً لأفكارهم؛ فلا يعزلون في بُرجٍ حقدِهم وغضبهم بحُجّة الاحتفاظ بالمبدأ، بل يواصلون الجهادَ في خدمة وطنهم ولو تحت راية جديدة. وعلى ذلك يمكن القولُ إنّ مدائح شوقي صوّرت واستعارت شعرية، لا عقيدة سياسية، فإذا مدح الملوك والأمراء لا يمدحُ سلطتهم المطلقة، ولا يراهم كما رأهم بعضُ قدماء الكتاب في الشرق والغرب من طينة غير طينة البشر.

لا يقولنَّ امرؤُ أصلي فما أصلهُ مسكٌ وأصلُ الناسِ طينٌ

وإذا غيرَ أسماءَ ممدوحيه، فإنه لا يغيّر ما يقصدُ إليه من وراء المدح، فما ممدوحه سوى الرويِّ في الشعر، لا يُنقص من قيمة الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعي، وما كانت هذه التقلُّباتُ لتنتقص مجدهُ في الزمن الآتي، وإن أراد البعضُ انتقاصه في الزمن الحالي: فالأجيالُ الآتية لن تعرفَ شيئاً عن ضعفنا ويأسنا ووهن عزيمتنا، بل ستدركُ كيف يستطيعُ المرءُ أن يعدلَ رأيه دون أن يكون جاحداً، ولا سيما في عهد الثورات الفكرية والانقلابات السياسية.

بل إنّه لولا هذه التقلُّباتُ ما كان شوقي على ما هو الآن، فقد قال النقاد: «لا هارب La Harpe» ما معناه: «إنّ في عصور الاضطرابات ما يُضعفُ الحكومات، وما يقوّي الشعرَ والخطابة.»

شوقي

فمن رأى كلَّ ما رآه شاعرُنَا من الحوادثِ العظامِ يزدادُ احترامًا لكلِّ ما من شأنه
دعمُ السلطةِ والعقيدةِ، والقضاءُ على الفوضى في الأفكارِ، فلا يفهم المنازعاتِ الحزبيةِ، بل
يدعو إلى الوثامِ والمسألةِ، اسمعوه ينادي بأعلى صوته:

إلَمَ الخلفُ بينكمُ إلَما وهذي الضَّجَّةُ الكبرىَ علامُ
وفيمَ يكيِّدُ بعضكم لبعض وتبدون العداوةَ والخصاما

أو يقول:

وإذا دعوتُ إلى الوثامِ فشاعرُ أقصى مناهُ محبةً وسلامُ

ودَعَوْتُهُ إلى الوثامِ جامعةٌ شاملة، فهي تتناول الأديانَ كما تتناول الأحزاب، فما قاله
في «موسى والمسيح وأحمد» لم يقله شاعر قبله.
وإذا كنَّا لا نلومه لقوله الآن:

اهجروا الخمرَ تُطيعوا الله أو تُرضوا الكتابا
إنها رجسٌ فطوبى لامرئٍ كفَّ وتابا

بعد أن كان قد قال في صباه:

رمضانُ ولَّى هاتِها يا ساقِي مشتاقَةٌ تسعى إلى مشتاق

فعلامَ نلومه؛ لأنَّه قال في سوى ذلك غيرَ ما قاله بالأمس؟
وهذا الشاعر الأرسطراطي الذي يجوز بحقُّ تلقيبه بشاعر الملوك والأمراء، كان
أيضًا شاعرَ الشعب فتغنَّى بأبنائه العصاميين ودافع عن حقوقه فقال:

سُخِّرَ الناسُ وإن لم يشعروا لقويٍّ أو غنيٍّ أو مبيِّنُ
والجماعاتُ ثنايا المرتقى في المعالي وجسورُ العابرين

وخطاب العمال بقوله:

قد دعاكم ذنب الهيئة داع فأصابا
هي طاووس وهل أحسنه إلا الذنابا

ولا يتبادر إلى ذهننا أن هذا التغيير يتمُّ عنده بلا نزاع ولا تردد بين الماضي الحاضر،
فهو يقول تارة:

لا تحذو عصابة مفتونة يجدون كلَّ قديمٍ شيءٍ منكرا

ويقول أخرى:

الهدم أجملُّ من بنايةٍ مصلح بيني على الأسس العتاقٍ جديدا

وصفوة القول: إنَّ شعره مرآةٌ للرأي العام، وتبعٌ لتقلباتِ الحوادث يُسجِّلُها فيه
ويرويهما في تلك القصائد التي يتغنى بها أبناءُ العربية في كلِّ قطر، فتتجلَّى فيها نزعات
الرأي العام أكثر ممَّا تتجلَّى فيها مبادئُ الشاعر السياسية، فهو كالنحلة تأخذ عسلها
من كل زهرة، أليس شوقي القائل في النحل:

فهل رأيتَ النحلَ عن أمانةٍ مُقَصِّره
ما اقترضتُ من بقلةٍ أو استعارت زهره
أدت إلى الناسِ به سُكرةً بسُكره

وما دمنا في ذكر تسجيلِ الحوادثِ وتدوينِ الوقائعِ في الشعر، فخليقُ بنا أن نُشيرَ
إلى ما كان لشعراء مصر من الفضل العميم على نهضتها من خليل وحافظ إلى العقاد
والمازني، ومن الرافعي ومحرم إلى الكاشف ونسيم، فقد تابَعوا النهضة في سيرها فسجلوا
وقائعها في قصائد ملؤها الروح السامية، بل سَيروا النهضة في منهجها القويم بسديد
أقوالهم، فرفعوا منارَ مصرَ وأعلوا شأنها بين الأمم.

وإذا رجعنا إلى أمير الشعراء أو شاعر الأمراء، ذكرنا أنه يُروى عن الإيطاليين قولهم:
لو كانت حكومتنا جمهوريةً ما انتخبنا رئيسًا لها غيرَ ملكنا ...

شوقي

ونعتقد أنه لو كانت دولة الأدب إمارة ما اختار أدباؤنا أميراً لها غير شاعر الأمراء، فهو جديرٌ بأن يتسَنَّم عرشَ الإمارة عن رضى واختيار من أركان دولة الشعر في هذا العصر؛ لأنه قد اجتمع له من صفات الشاعرية ما يؤهله لذلك، ولعلَّ الاحتفاءً به في هذا الأسبوع يتمُّ بمبايعته رسمياً بالإمارة.^٤ فقد صح فيه ما قاله عنه المرحوم إسماعيل صبري باشا منذ ثلث قرن:

مَرَحَبًا بالقصيد يتلوهُ للشعـ ر أميرٌ يُصغي له أمراءُ

^٤ وقد تمت هذه المبايعة في الحفلة التي أقيمت بعد أيام (٢٩ أبريل سنة ١٩٢٧) في دار الأوبرا الملكية لتكريم شوقي، فألقى فيها الشاعر الكبير «حافظ إبراهيم» قصيدة عامرة تقدم في أثناء إلقائها من المقصورة التي كان أحمد شوقي جالساً فيها، وأخذ بيد زميله منشداً بين التصفيق وهتاف الإعجاب بالشاعرين:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مُبايعاً وهذي جموعُ الشرقِ قد بايَعَتْ معي

شوقي عاش شاعرًا، ومات شاعرًا^١

ما أشأم هذا الصيفَ على الأدبِ العربي!
غِيَّبَتْ أَشْهُرُهُ الثَّلَاثَةَ مِنْ سَمَاءِ الشَّعْرِ فَرَقْدَيْهِ، وَقَوَّضَتْ مِنْ صِرْحِ الْأَدَبِ رُكْنِيهِ.
مَا هَمَّتْ شَمْسُ الصَّيْفِ بِدُخُولِ «بِرَجِ الْأَسَدِ» فِي أَوَائِلِ الْفَصْلِ حَتَّى أَغَارَتْ عَلَى
الْأَدَبِ فِطَاحَتْ بِفَارَسِ مِيدَانِهِ، وَمَا اسْتَوَتْ عِنْدَ أَوَاخِرِ الْفَصْلِ فِي «بِرَجِ الْمِيزَانِ» حَتَّى
عَبَثَتْ بِفَيْصِلِ الشَّعْرِ وَمِيزَانِهِ.
مَا كَفَكَفَتْ مِصْرُ دُمُوعِهَا عَلَى «حَافِظٍ» حَتَّى عَادَتْ تُطَلِّقُهَا الْيَوْمَ عَلَى «شُوقِي»، وَمَا
انْتَهَتْ أُنْدِيَةُ الْعَرَبِ مِنْ تَوْفِيَةِ «حَافِظٍ» حَقَّ التَّابِينَ وَالرِّثَاءِ، حَتَّى حَمَلَ إِلَيْهَا الْبَرْقُ نَعِي
إِمَامِ الشَّعْرِ وَأَمِيرِ الشُّعْرَاءِ.
مِنْذَ عَشْرَةِ أَسَابِيحٍ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذِهِ الْمُدَّةِ، كَانَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ يَتِيَهُ بِشَاعِرِيهِ
فَخَرًّا، وَيَطَاوُلُ بِهِمَا أَزْهَى عَصُورِ الْأَدَبِ زَهْوًا، وَهَا هُوَ الْيَوْمَ، وَقَدْ فُجِعَ بِهِمَا الْوَاحِدُ تَلَوَّ
الْآخَرَ، يَبْكِيهِمَا مَعًا، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ!
أَمَّا مِصْرُ فَإِنَّ شَعْرَ شُوقِي وَحَافِظٍ قَدْ أَجْلَسَهَا الصَّدْرَ بَيْنَ بِلَادِ الْعَرَبِ، وَثَبَّتَ فِي
بِئْسَ مَدَّةٍ ثَلَاثَ قَرْنٍ صَوْلَجَانَ الْأَدَبِ، فَكَانَتْ مِصْرُ تَبَاهِي سَائِرَ الْأَمْصَارِ، وَكَانَ عَصْرُهَا
بِشَاعِرِيهَا عَصْرًا يُدَلُّ عَلَى الْعَصُورِ وَيَفَاخِرُ عَهْدَ بَغْدَادَ وَالْأَنْدَلِسِ فِي إِبَّانِ الْإِزْدَهَارِ.

يقول اللاتين: «يَصِيرُ الْخَطِيبُ خَطِيبًا، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يُوَلَّدُ شَاعِرًا.»

^١ نُشِرَتْ بِالْأَهْرَامِ يَوْمَ وَفَاةِ شُوقِي.

وقد وُلد شوقي شاعرًا، وظلَّ شاعرًا من مهده إلى لحده. كان شاعرًا يوم دخلت به جدّته على الخديوي إسماعيل، وهو في الثالثة من عمره؛ وكان بصره لا ينزلُ عن السماءِ من ارتجاج أعصابه، فطلب الخديوي بَدْرَةً من الذهب، ثم نثرها على البساطِ عند قدميه؛ فوقع شوقي — كما روى في مقدمة ديوانه — على الذهبِ يشتغل بجمعه واللعب به، فقال الخديوي لجدّته: «اصنعي معه مثلَ هذا، فإنه لا يلبثُ أن يعتادَ النظرَ إلى الأرضِ». قالت: «هذا دواءٌ لا يخرجُ إلا من صيدليتك يا مولاي». قال: «جيتي به إليّ متى شئت، إنني آخرُ من ينثرُ الذهبَ في مصر».

وكان شوقي شاعرًا، وهو طالبٌ في المدرسة، وقد أخذت إلهمة الشعرِ تُوحى إليه بالصور الجميلة والكلام الموزون الموسيقي.

وكان شوقي شاعرًا، وهو يطلبُ الحقوقَ والآدابَ في فرنسا؛ وقد نظم في تلك الحِقبة من القصائدِ ما كان يبشِّرُ بما سيصيرُ إليه من الإمامة والإمارة في دولة القريض.

وكان شاعرًا، وهو يُمثّلُ الحكومةَ المصريةَ في مؤتمر جنيف؛ فنظم قصيدةً غزّاء تضمّنت ما وقع في وادي النيل من كبار الحوادثِ منذ فجر التاريخ. وظلَّ شاعرًا في جميع أدوار حياته، وهو في أوج الجاه وأبهة المناصب العالية والنفوذ لدى الحكام؛ وظلَّ شاعرًا، وهو في منفاه يطوفُ ربوع الأندلس ويتغنّى بمفاخرها الدارسة، ويبكي ويستبكي حنينًا إلى وطنه.

وظلَّ شاعرًا بعد عودته إلى ذلك الوطن، بل قد يكون هذا العهدُ، وهو عهدُه الأخير، أخصبَ أدوارِ عمره إنتاجًا شعريًا، فقد ألقه فيه عمّا ألفه اضطرارًا، بحكم لقبه ومنصبه، من الموضوعات التي حَفَلَ بها ديوانه الأوّل، وتوفّر على كل موضوعٍ وطنيٍّ تاريخيٍّ عمراني، وكانَّ قريحته كانت تزدادُ صفاءً ورواءً مع تقدّمه في السن، وكانَّ شاعريته كانت تزيد تدفُّقًا وغزارةً كلما أخذ معينُ الحياةِ ينضبُ في جسمه النحيل.

فلم يكتفِ بالقصائدِ يَقصدها، بل عمد إلى أشهرِ الحوادثِ من تاريخ مصرَ وتاريخ العربِ ينظّمها رواياتٍ تمثيليةً شعرية، وأقبل على الفن الروائيِّ يُعالجه في سنٍّ يُودَّع فيها هذا الفنُّ غيره من الشعراء.

وهكذا كان في الحلقة الأخيرة من عمره يُطالعنا في كلِّ حادثٍ من الحوادثِ بقصيدةٍ عصماء، ويُرْفُ إلينا في كلِّ عامٍ روايةً حسناء.

كان شاعرًا في «كرمة ابن هاني» يوم كانت في «المطرية» مباءة أهل الفضل والأدب، وبعد أن انتقلت إلى «الجزيرة» على ضفة النيل يجمع فيها أميرها نفرًا من أصحاب النظر والرأي في الكتابة، فيطلعهم على رواياته قبل أن يدفعها إلى خشبة المسرح. وظلَّ شوقي شاعرًا في مماته: ففي الليلة التي تقدّمت صباح منيته، كانت إحدى المغنيات الشهيرات تُنشدُ قصيدةً من قصائده، والجمهورُ يُصَفِّقُ طربًا لروعة الشعر، وبعد وفاته ببضع ساعاتٍ كانت آخرُ قصيدةٍ نظمها تلقى في حفلة الشباب القائم بمشروع القرش.

وقد يختلفُ الرأيُّ في بعض شعره؛ غير أن في دواوينه الكثيرَ مما يرفع قائله إلى المرتبة الأولى بين الشعراء، ويحفظُ ذكره خالدًا في تاريخ الأدب. ولقد كان، رحمه الله، على ما نال من بسطة العيش وكبير الألقاب وواسع الجاه وبعُد الشهرة، وديع النفس مُنخَفِصَ الجانبِ دَمِثَ الأخلاق. وكان عَفَّ اللسان والقلم؛ لم ينطقُ هجرًا، ولم يكتب هجواً، قال فيه المرحوم إسماعيل صبري باشا:

مرحبًا بالمقالِ سمحًا كريمًا لم يَشْبُهْ هجواً ولا إيذاءً
مرحبًا بالبيانِ سحرًا وبالشع رِ تَحْلِيهِ حكمةً غراءً

أما برُّه بأولاده وعطفُه على أهل بيته فقد كانا مضرِبَ المثل؛ فكأنَّه خُلِقَ ليكونَ أبًا، كما وُلدَ شاعرًا، وقد نظَّم في بنيه قصائدٌ سوف يخلدُ معها ذكرُهم.

أمَّا الآن، وقد مات حافظ، فمن ذا الذي يوفِّي شوقي حَقَّهُ من الرثاء، وهو القائل منذ شهرٍ في رثاء حافظ:

قد كنتُ أوثِرُ أن تقولَ رثائي يا منصفَ الموتى من الأحياءِ
لكن سبقتَ وكلُّ طولِ سلامةٍ قَدَّرَ وكلُّ منيةٍ بقضاءِ

وهكذا لفتَ المنيةَ اليومَ علمًا من أرفعِ أعلامِ الشعر، وطوتَ صفحةً من أمجد صفحاتِ الأدبِ العربي.

شوقي

وعندما أُودِعَ شوقي القبرَ عند غروبِ شمسِ اليوم، لم يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ نذكرَ قوله:

أقولُ لهم في ساعةِ الدفنِ خَفِّفُوا عليَّ ولا تُلْقُوا الصخورَ على قبري
ألم يكفِ همُّهم في الحياةِ حملتُهُ فأحملَ بعدَ الموتِ صخرًا على صخرِ

شوقي شاعريته ومميزاتها^١

منذ خمس سنواتٍ وبعضِ السنة اجتمعنا في هذا المكانِ لنفسِهِ لتكريمِ «شوقي»، واشتركتُ معنا وفودُ الشرقِ العربيِّ في صَفْرِ إكليلِ الغارِ على مَفْرَقِ أميرِ الشعراءِ، كما هي تشتركُ معنا اليومَ في نَثْرِ أزاهيرِ الذكرى على قبرِهِ، وكأني بالفقيدِ الكريمِ ماثلاً كالأمسِ في مقصورتِهِ هذه، وكأني بفقيدنا العظيمِ الآخرِ — حافظِ إبراهيم — باسطاً يدهُ إليه، وأجواءُ هذه القاعةِ تردُّ، بين التصفيقِ والهتافِ، صدى صوتِهِ الفخمِ:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مُبايعاً وهذي وفودُ الشرقِ قد بايَعَتُ معي

أما الفرقُ بينِ حفلتينا هذه وحفلتينا تلكَ، فالفرقُ بينِ نشوةِ الحياةِ وهمدةِ الموتِ، وبينِ بهجةِ الأعيادِ وخشوعِ المآتمِ، ولئن قصَّرَ خطيبُ اليومِ عن خطيبِ الأمسِ.

فمعذرةُ اليراعةِ والقوافي جلالُ الرزءِ عن وصفِ يدُقُّ^٢

^١ على أثر وفاة المرحوم أحمد شوقي بك تألفت لجنة من الأدباء برياسة وزير المعارف؛ لإقامة حفلة تأبين كبرى للفقيد الكريم، وقد طلبت اللجنة من المؤلف أن يخطب عن «شاعرية شوقي ومميزاتها»، فوضع هذا البحث ولخصه في خطبة ألقاها في الحفلة التي أقيمت في دار الأوبرا الملكية بعد ظهر يوم الأحد ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢.

^٢ البيت لشوقي.

شوقي

حديثي معكم أيها السادة، عن شاعرية شوقي، أو عن «شوقي الشاعر»، وهل كان شوقي في حياته إلا شاعراً؟ وهل يبقى منه بعد مماته غير الشعر؟ بضعة أسابيع مرّت على وفاته، وها قد نسيّ كبيرُ موظفي المعية وحاملُ الألقابِ الضخمة من الدولة العلية؛ واضمحلاً صاحبُ الثروة والجاه والنفوذ، وعفاً أنزَّ العضو في مجلس الشيوخ، فأصبحنا ولا نروي عنه إلا ذلك الشعر الذي أرقص وأطرب، ولا نذكرُ منه إلا ذلك الشاعر الذي نظم فأعجب.

ولقد أدرك ذلك هو نفسه إذ أنشدَ يومَ كان صاحبَ الصول والطول:

شاعرُ العزيزِ وما بالقليلِ ذا اللقبُ

ويوم قال بعد منفاه:

ما ماتَ من حازَ الثرى آثارُهُ واستولتِ الدنيا على آدابه

بل إنَّ قيمةَ الشاعرِ في نظره لم تكن لتضارعها قيمةٌ.

والله ما تدري لعلَّ كفيفهم يوماً يكونُ أبا العلاءِ المبصراً
لو تشتريه بنصفِ مُلكك لم تجدُ غبناً، وجلَّ المشتري والمشتري

بل غالى حتى رأى الشعرَ مبعثَ كلِّ نهضةٍ قومية:

لم تَنُرْ أُمَّةٌ إلى الحقِّ إلاَّ بهدى الشعرِ أو خطا شيطانِه

بل زاد في الغلو فقال:

أنتمُ الناسُ أيها الشعراءُ ...!

شوقي شاعريته ومميزاتها

حَمَلَ قِيثَارَةَ الشَّعْرِ، وَهُوَ غَلَامٌ يَافِعٌ، وَلَمْ تَقْعَ مِنْ يَدِهِ إِلَّا صَبِيحَةٌ وَقَعَ صَرِيحَ الرَّدَى،
وَلَقَدْ ظَلَّ بَيْنَ الْعَهْدَيْنِ، مَا يَقْرَبُ مِنْ نَصْفِ الْقَرْنِ، يُخْرَجُ مِنْهَا أَعْدَبَ الْأَنْغَامِ وَأَشْجَاهَا،
حَيْثَمَا كَانَ وَكَيْفَمَا كَانَ: فِي مَوَاقِفِ الرُّوعِ وَمَوَاقِعِ الْحُرُوبِ:

أَمْوَلَايَ غَنَّتَكَ السِّيُوفُ فَأَطْرَبْتُ فَهَلْ لِيِرَاعِي أَنْ يُغْنِيَّ فَيُطْرِبُ
وَغَنَدِي كَمَا عِنْدَ الظُّبَا لَكَ نَغْمَةٌ وَمُخْتَلَفُ الْأَنْغَامِ لِلْأُنْسِ أَجْلِبُ^٣

أو في مواطن الطمانينة والابتهاج:

أَشْهَى مِنَ الْعُودِ الْمَرْنَمِ مَنْطِقًا وَالذُّ مِنْ أوتارِهِ تَغْرِيدًا^٤

لم يَشُدَّ إِلَى قِيثَارَةِ الشَّعْرِ وَتَرًا جَدِيدًا، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ أَنْ يُنْطِقَ الْأوتَارَ الْقَدِيمَةَ بِنَغْمَاتٍ
جَدِيدَةٍ مُسْتَعْدَبَةٍ، فَأوتَارِ الْعُودِ مَعْدُودَةٍ، وَهِيَ هِيَ، عَدَا وَنوعًا، تَحْتَ أَنْامِلِ الْعَازِفِ، وَلَكِنَّ
كُلَّ عَازِفٍ يَفْتَنُ فِي النِّقْرِ عَلَيْهَا مَا شَاءَ لَهُ الْاِفْتِنَانُ، فَيُسْمِعُنَا مِنْهَا الْجَدِيدَ مِنَ الْأَلْحَانِ،
وَالْوَانُ الشَّبْحِ الشَّمْسِيِّ وَاحِدَةً، وَلَكِنَّ كُلَّ مَصوِّرٍ يَبْتَدِعُ مِنْ مَزِيجِهَا شَتَّى الْأَلْوَانِ.
وهكذا كانت أوتارُ القِيثَارَةِ الْقَدِيمَةِ فِي يَدِهِ تُخْرِجُ أَلْحَانًا مُسْتَجِدَّةً فِي كُلِّ مَوْضُوعٍ
فَكَانَ:

يَكَادُ إِذَا هُوَ غَنَى الْوَرَى بِقَافِيَةٍ يُنْطِقُ الْقَافِيَةَ
وَتَحَكُّمُ فِي النَّفْسِ أوتَارُهُ عَلَى الْعُودِ نَاطِقَةً حَاكِيَةً^٥

وما هي أوتارُهُ النَاطِقَةُ الْحَاكِيَةُ...؟

أَيُّهَا السَّادَةُ، الْدِينُ وَالْوَطَنُ عَاطِفَتَانِ غَرِيضَتَانِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، فَهُمَا وَتَرَانِ
أَسَاسِيَّانِ فِي قِيثَارَةِ الشَّاعِرِ، مَا دَانَاهُمَا بَلْمِيسٍ إِلَّا أَخْرَجَا نَغْمًا بَعِيدَ الْقَرَارِ، وَمَا نَقَرَ
عَلَيْهِمَا إِلَّا اسْتَثَارَ فِي صُدُورِ الْجَمَاهِيرِ الْغَيْرَةِ وَالنَّخْوَةِ وَالْحَمَاسَةِ.

^٣ من قصيدته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية.

^٤ من قصيدته في تهية السجناء الذين كانت المحاكم العسكرية قد اعتقلتهم.

^٥ من قصيدته في رثاء «فردى».

وتر الدين

نقر «شوقي» على وتر الدين فتغنى بالإسلام غناءً جزلاً فخمًا، بلا تصنعٍ ولا تكلف، بل عن عقيدة وإيمان، فكست عقيدته نظمه حلةً قدسية، وعقد إيمانه حول هذا النوع من شعره هالةً نورانية.

اسمعوه يعتزُّ بالإسلام:

| | |
|--|--|
| يَزِينُهُنَّ جِلالَ العَتِقِ وَالقَدَمِ | أَيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ المَدَى جُدُدُ |
| يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ | يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ |
| حَدِيثُكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الفَهْمِ | يَا أَفْصَحَ النَّاظِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً |
| فِي كُلِّ مَنْتَثِرٍ فِي حَسَنِ مَنْتَظَمِ | حَلَيْتَ مِنْ عَطَلٍ جَيِّدِ البَيَانِ بِهِ |
| وَكَيفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِيَّ | يَا «أَحْمَدُ» الخَيْرِ لِي جَاهٌ بِتَسْمِيَّتِي |

واصغوا إليه يَفْخَرُ بدول الإسلام:

| | |
|--|--|
| كُلُّ اليَواقِيتِ فِي «بَغدادِ» وَالتُّومِ ^٦ | دَعَّ عَنكَ «رَوما» وَ«أَثينا» وَمَا حَوَتَا |
| هُوَ عَلى أَثَرِ النيرانِ وَالأيمِ ^٧ | وَخَلَّ كَسْرَى وَإِيانًا يُدِلُّ بِهِ |
| دَارُ السَّلامِ لَهَا أَلَقْتُ يَدَ السَّلامِ ^٨ | دَارُ الشَّرائِعِ رَوما، كَلِما ذُكِرَتْ |
| وَلا حَكتَها قِضاءً عِنْدَ مُخْتَصَمِ | ما ضارَعَتَها بَيانًا عِنْدَ مُلتَأَمِ |

وبملوك الإسلام:

| | |
|--|---|
| عَلى رَشيدٍ وَمأمونٍ وَمُعْتَصِمِ | وَلا احتوت ^٩ فِي طَرازٍ مِنْ قِياصرِها |
| تَصَرَّفُوا بِحدودِ الأَرْضِ وَالتَّخَمِ | مِنَ الذِّينِ إِذا سَارتِ كَتائِبُهُم |

^٦ التوم جمع تومة، وهي الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة.

^٧ الأيم: الدخان.

^٨ دار السلام: بغداد. السلم: التسليم.

^٩ الضمير يعود إلى روما.

ويجلسون إلى علمٍ ومعرفةٍ فلا يُدَانُونَ في عقلٍ ولا فَمهم

وإذا انتصرت دولةٌ من دول الإسلام ترنحَ طرفاً ورنحَ الشرقَ معه:

| | |
|------------------------------------|---|
| وأرَجَ الفتحُ أرجاءَ الحجازِ وكم | قضى الليالي لم ينعَم ولم يَطِبِ |
| وأزَيَنَت أمهاتُ الشرقِ واستبَقَتْ | مَهَارِجُ الفتحِ في الموشيةِ القشِبِ |
| هزَّتْ دمشقُ بني أيُّوبَ فانتبهوا | يُهنئُونَ بني حَمَدَانَ في حَلَبِ |
| ومسلمو الهندِ والهندوسُ في جدَلِ | ومسلمو مصرَ والأقباطُ في طربِ |
| ممالكُ ضمَّها الإسلامُ في رَحِمِ | وشيجةٍ ^{١٠} وحواهَا الشرقُ في نسبِ |

يُقدِّسُ الإسلامُ ويجلُّ تقاليدَه العريقة، وينبزي للذود عن الخلافة بجميع جوارحه:

| | |
|----------------------------------|--|
| مَنْ قائلٌ للمسلمين مقالةً | لم يُوجها غيرُ النصيحةِ واحِ |
| عهدُ الخلافةِ في أولِ ذاتِ | عن حوضها ببيراعِهِ نضاحِ ^{١١} |
| حُبُّ لذاتِ اللهِ كان ولم يَزَلْ | وهوى لذاتِ الحقِ والإصلاحِ |

وهو لا يُنزهَ المسلمين عن الأخطاءِ والهفواتِ، ولكنَّ الذنبَ إنما هو ذنبهم لا ذنبُ الإسلامِ.

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| من عادةِ الإسلامِ يرفعُ عاملاً | ويُسوِّدُ المقدامَ والفعَّالاً |
| ظلمتهُ ألسنةٌ تُؤاخِذهُ بِكُمْ | وظلمتموهُ مُفرطين كَسالى |
| هذا هلاككمُ تكفَّلَ بالهدى | هل تعلمون مع الهلالِ ضلالاً؟ |

ومن هذا الشيءُ الكثيرُ ممَّا لا مجالَ لإيرادهِ بجمليتهِ، وتجدرُونه في شتى قصائدهِ، ولا سيما في الهمزيةِ النبويةِ، وعرفاتِ، والخلافةِ وذكرِ المولدِ، والأزهرِ، والهلالِ، ونهجِ البردةِ، ورتاءِ مقدونيا إلخ.

^{١٠} وشيجة: متصلة القرابة.

^{١١} الذائد: الحامي. النضاح: الدافع.

شوقي

ومثلُ هذه النبضات لا تَصْدُرُ إِلَّا عن قلبٍ عامرٍ بالإيمانِ:

شعرٌ من النَّسَقِ الأعلى يُوَيِّدُهُ من جانبِ الله إلهامٌ وإيحاءٌ

روى كاتبه الأديب في كتاب أصدره منذ أسبوع ١٢ أنه كان يقرأ له في «المختصر من مكاشفة القلوب» للغزالي قال: «وبقيت حتى منتصف الساعة الواحدة، ولم يبق إلا موضوع واحد، وهو وفاة رسول الله ﷺ، ولكنني لفتته إلى أن هذا الوقت موعِد رياضته، فقال: حتى تُتِمَّ، فقرأت له موضوع الوفاة، فأخذ يبكي.» ا.هـ.



شوقي وأولاده (في سنة ١٩٠٧).

١٢ «١٢ عامًا في صحبة أمير الشعراء» بقلم أحمد عبد الوهاب أبو العز.

وكان تمسكه هذا بالدين بعد أن خَبَرَ الدنيا وذاق حلوها ومرها:

جنيتُ بروضها وردًا وشوگا وذُقتُ بكأسها شُهْدًا وصابا
فلم أَرِ حُكْمَ اللّهِ حُكْمًا ولم أَرِ دُونَ بَابِ اللّهِ بَابًا

على أن هذا الشاعرَ الراسخَ العقيدة، الصادقَ الإيمان، لم يُسْعَ إلى أحدٍ في عقيدته؛ لأن مبدأه كان: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه.» وهكذا تَرَوْنَ أدباءَ المسيحيين والإسرائيليين يتغنون بشعره الإسلامي، ويطربون له طرب المسلمين أنفسهم، وقد يتناول أدقَّ الموضوعات من هذا القبيل، ولكنه يتناولها بلمس الحرير فلا يؤلم ولا يجرح، كوصفه كنيسة آيا صوفيا التي صارت مسجدًا:

كنيسةٌ صارت إلى مسجد هديةً السيّد للسيّد

ووصفه مدينةً القسطنطينية وقد خرجت من يد الروم إلى يد بني عثمان:

أدارَ محمدٌ وتُراثَ عيسى لقد رضياك بينهما مُشاعا
فهل نَبَذَ التَّعَصُّبَ فِيكِ قَوْمٌ يَمُدُّ الجَهْلُ بينهما نِزاعا

وهكذا يحترم الأديانَ ويُجلُّ كُتُبها:

أرسلتَ بالتوراةِ موسىَ مرشدًا وابنَ البتولِ فعَلِمَ الإنجيلا
وفَجَرَتْ يَنْبوعَ البَيانِ محمدًا فسَقَى الحديثَ وناولَ التنزيلا

وإذا وقع العيدين — عيد المسلمين وعيد المسيحيين — في يومٍ واحدٍ حيّاهما معًا
أجملَ تحيةً:

العامُ أقبلَ قم نُحْيِ هلالا كالتاجِ في هامِ الوجودِ جلالا
عيدُ المسيحِ وعيدُ أحمدَ أقبلا يتباريان وضاءً وجمالا
ميلادُ إحسانٍ وهجرةٌ سؤدِدُ قد غَيَّرَا وَجَهَ البسيطةِ حالًا

وإذا رأى اعتداءً من دولةٍ من دول الصليب، فإنه لا يُثير الأحقادَ الدينية القديمة، بل يُبرئُ الدينَ، ويُنجي باللائمةِ على الذين لا يتبعون وصاياها:

تبراً عيسى منهم وصحابه أأتباع عيسى ذي الحنان جفاة؟

أو يعاتبُ أطفَ عتابٍ ويمهدُ له أجمل تمهيد:

عيسى سبيلك رحمةً ومحبةً في العالمين وعصمةً وسلاماً
ما كنتَ سفكاً الدماءِ ولا امرءاً هانَ الضعافُ عليه والأيتامُ
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورى كثرَت عليه باسمك الآلامُ
أنتَ الذي جعلَ العبادَ جميعهم رجماً وباسمك تُقطعُ الأرحامُ
البغي في دينِ الجميع دنيئةً والسلمُ عهدٌ والقتالُ ذمامُ

أما الحروبُ الدينية التي مرّقت الإنسانية في حقباتٍ مُختلفة فمرجعها إلى الضلال، والدين ينفضُ يده منها.

لولا ضلالٌ سابقٌ لم يقم من أهلك الخلق ولم يقعد
فكلُّ شرٍّ بينهم أو أدنى أنت براءٌ منه طهرُ اليد

ومن كانت هذه آراؤه في الأديان ومُوحياها فلا عجب أن يكونَ في طليعة الداعين إلى اتحاد العنصرين المكوّنين للأمة المصرية:

أعهدتنا والقبط إلا أمةً للأرض واحدةً تروم مراما
نُعلي تعاليمَ المسيح لأجلهم ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديان جلّ جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما
هذي قبوركم وتلك قبورنا متجاورين جماجماً وعظاما
فبحرمة الموتى وواجبِ حقهم عيشوا كما يقضي الجوار كراما

شوقي شاعريته ومميزاتها

وهو يُدلل على وجوب هذا الاتحاد باسم الوطن:

ألم تك مصرُ مهدنا ثم لحدنا وبينهما كانت لكل مغانيا
ألم نك من قبل المسيح بن مريم وموسى وطه نعبد النيل جاريا
فهلّا تساقينا على حبه الهوى وهلا فديناه ضفافا وواديا

بل باسم الدين نفسه:

إنما نحن مسلمين وقبطاً أمةٌ وُحِّدت على الأجيال
وإلى الله من مشى بصليبٍ في يديه ومن مشى بهلالٍ

ومن نعم الله على مصر أن هذا الاتحاد قد توثق فيها على وجه لم يتوثق على مثاله في قطر آخر، فتارت البلاد تطالب باستقلالها تحت راية رُسم عليها الهلالُ معتنقاً الصليب، وفي ذلك يقول فقيدنا:

مرزقتم الوهمَ وألّفتم أهلة الله على صلبه
حتى بنيتم هرمًا رابعًا من فئة الحق ومن حزبه

وهو القائل كذلك في الصليب والهلال:

جبريل أنت هدى السما ء وأنت برهان العنايه
ابسط جناحك اللذي من هما الطهارة والهدايه
وزد الهلال من الكرا مة والصليب من الرعايه
فهما لربك رايه والحرب للشيطان رايه

وله في كل ذلك حكمة بالغة وهي:

الدين لله من شاء الإله هدى لكل نفس هوى في الدين يعنيتها
ما كان مختلف الأديان داعيةً إلى اختلاف البرايا أو تعاديتها

شوقي

الكَتُبُ والرُّسُلُ والأَدْيَانُ قاطِبَةً خَزَائِنُ الحِكْمَةِ الكَبْرَى لَوَاعِيهَا
مَحَبَّةُ اللّهِ أَصْلٌ فِي مَرَاشِدِهَا وَخَشْيَةُ اللّهِ أُسٌّ فِي مَبَانِيهَا
وَكُلُّ خَيْرٍ يُلْقَى فِي أَوَامِرِهَا وَكُلُّ شَرٍّ يُوقَى فِي نَوَاهِيهَا
تَسَامُحُ النَفْسِ مَعْنَى مِنْ مَرُوءَتِهَا بَلِ المَرُوءَةُ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا

هذا مثالٌ من الأنغام الفخمة التي استخرجها «شوقي» من وتر الدين، وهي نغماتٌ ذات أجنحة مصفّقة تحملها على تموجات العواطف إلى الملايين من الناس، فيتراجع صداها في الصدور حيث تستقرُّ بردًا وسلامًا، وهل تعرفون شعراء كثيرين وُفقوا لما وُفق له شوقي؛ إيمانًا صادقًا، ورأيًا صائبًا، وحكمة رائعة، وذوقًا سليمًا، مع جزالة في اللفظ وفخامة في الأسلوب؟

وتر الوطن

أمَّا وترُ الوطن فلم يكن بأقلِّ براعة وحدقًا في النقرِ عليه، فوطنياتُ شوقي خليقةٌ بأن تُجمع وتدرّس في المدارس لتنشئة الطلبة على حب الأوطان، فهو يقدس الوطن تقديسًا، ويتكلم عن العاطفة الوطنيّة كعقيدة دينية، أليس حبُّ الوطن من الإيمان، وهو الرجلُ المؤمن كما رأينا؟

أيا وطني لَقَيْتُكَ بعدَ يَأْسٍ كَأَنِّي قد لَقَيْتُ بِكَ الشَّبَابَا
ولو أَنِّي دُعَيْتُ لَكَتَ دِينِي عَلَيْهِ أَقَابِلُ الحَتَمِ المُجَابَا^{١٣}
أُدِيرُ إِلَيْكَ قَبْلَ البَيْتِ وَجْهِي إِذَا فَهَتِ الشَّهَادَةَ وَالمَتَابَا

أَنْزَلَ الوَطْنَ مَنْزِلَةَ الدِّينِ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ، وَفِي غَيْرِهَا:

وسَلَا مَصَرَ هَلْ سَلَا القَلْبُ عَنْهَا أَوْ أَسَا جَرَحَهُ الزَّمَانُ المَوْسَى
كَلَّمَا مَرَّتِ اللَّيَالِي عَلَيْهِ رَقَّ، وَالعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقَسَّى

^{١٣} الحتم المجاب: هو الموت.

شوقي شاعريته ومميزاتها

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهل يُستغرب ممن ينبض قلبه بهذه العاطفة الوطنية أن يجعل مصر كعبة
أشعاره؟

وإني لغريد هذي البطاح تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره وكل معلقة قالها

ويكاد يتغزل بوطنه في كل موضوع يعالجه، حتى في خمرياته، فبينما ينشد في
العيد طرباً؛ رمضان ولي، هاتها يا ساقى، إذ به يتجهّم لذكرى وطنه:

وطني أسفت عليك في عيد الملا وبكيت من وجد ومن إشفاق
لا عيد لي حتى أراك بأمة شماء راوية من الأخلاق
نعم، إن حب الوطن سجيّة كل حرّ:

وللأوطان في دم كل حرّ يد سلفت ودين مستحق

يقول ذلك ويعيده:

ولقد صدقتم، هذه الأرض الهوى والحرّ يصدق في هوى أوطانه

ولكن مصر أخرى من سواها من الأوطان بهوى أبنائها:

إن الذي قسم البلاد حباكم بلدا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان والدنيا لحوذ كلها للعبقريّة والفنون موهدا

واسمعه بعد ذلك يُعَدُّ محاسن هذا الوطن في مختلف قصائده مهما تنوعت
موضوعاتها، ويُبَدِّع في وصف آثار مصر ما شاء الإبداع، سواءً تكلم عن الهياكل وما فيها
من مدهشات الفن:

شَابَ من حولها الزمان وشابت
ومحاريب كالبروج بَنَتْهَا
وشبابُ الفنون ما زال غَضًّا
عَزَمَاتُ من عزمة الجنِّ أَمْضَى ...

أم تكلم عن أهرام مصر:

لك كالمعابد روعةً قُدسيةً
أَسَّست من أحلامهم بقواعد
وَرُفِعَت من أخلاقهم بعماد
قُمْ قَبْلَ الأحجارِ والأيدي التي
وعليكِ روحانيَّة العبيدِ
أَخَذتْ لها عهدًا من الأباد
مهدُ الشمسِ ومسقط الآراد^{١٤}
وَحُذِّ النبوغُ عن الكنانةِ إنها

أو عن أبي الهول:

كأنَّ الرمالَ على جانبيـ
كأنَّك فيها لواءُ القضا
ك وبين يديك ذنوبُ البَشَرِ
ءِ على الأرضِ أو ديدبانُ القَدْرِ

أو عن النيل:

من أيِّ عهدٍ في القرى تتدفَّقُ
ومن السماءِ نزلتَ أم فُجِّرْتَ من
وبأي نول أنت ناسجُ برديَّة
لي فيك مدحٌ ليس فيه تكلفُ
وبأي كَفِّ في المدائن تُغْدِقُ
عُليا الجنانِ جداولًا تترقرقُ
للضفتين جديدها لا يخلقُ ...
أملأه حُبِّ ليس فيه تملُّقُ

^{١٤} الآراد: جمع رَاد. والمراد رَاد الضحى وهو وقت ارتفاع الشمس.

ولكن ما له وللتفصيل، فكلُّ ما قام في مصرَ عجبٌ بخلوده:

أُمَّةٌ لِلْخُلْدِ مَا تَبْنِي إِذَا ما بنى الناسُ جميعاً للعفاءِ
تَعَصِمُ الْأَجْسَامَ مِنْ عَادِي الْبَلِي وتقي الآثارَ من عادي الفناءِ

ومجال الفخر بتاريخ مصر، وما تعاقبَ فيها من جُسامِ الحوادث، لا يقلُّ اتساعاً
عن مجال الفخر بآثارها الخالدة:

وَخَفِضَ جَنَاحَكَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي حَمَلْتُ موسىَ رَضِيْعاً وَعَيْسَى الطَّهْرِ مَنْقَطَمَا
وَأَخْرَجْتَ حِكْمَةَ الْأَجْيَالِ خَالِدَةً وَبَيَّنْتَ لِلْعِبَادِ السِّيفَ وَالْقَلَمَا ...
هَذَا فِضَاءٌ تَلِمُ الرِّيحُ خَاشِعَةً بِهِ، وَيَمِشِي عَلَيْهِ الدَّهْرُ مُحْتَشِماً

وعلماءُها الأعلامُ هم الذين نشروا نورَ التمدين في العالم:

فَكَانُوا الشُّهَبَ حِينَ الْأَرْضِ لَيْلاً وحين الناسُ جد مَضْلَلِينَا
مَشَتْ بِمَنَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ رُومَا ومن أنوارهم قَبَسَتْ أَثِينَا

وأين تاجُ الملوكِ وعرشهم من تاجِ ملكِ مصرِ وعرشه:

بَاهِ الْمُلُوكِ بِهَذَا التَّاجِ إِنَّ لَهُ في جِوهرِ الشَّمْسِ لَا فِي الْمَاسِ مُنْتَسِبَا
وَتَهُ عَلَيْهِمْ بَعْرِشٌ غَيْرُ ذِي لِدَةٍ من عهدِ «خوفو» على المَاءِ اسْتَوَى عَجْبَا
لَوْ اسْتَطَعْنَا لَزِدْنَا فِيهِ قَائِمَةً وَلَا تَخَذْنَا لَهُ أُمَّ السُّهَا عَتَبَا

وهو على هذا النحو يبسطُ تاريخَ مصرِ استفزازاً للهمم:

وَأَنَا الْمُحْتَفِي بِتَارِيخِ مِصْرٍ من يَصْنُ مَجْدَ قَوْمِهِ صَانَ عَرْضَا
لَمْ تَمُتْ أُمَّةٌ وَلَا بَادَ شَعْبٌ أَقْرَضُوا الذِّكْرَ وَالْأَحَادِيثَ قَرْضَا

أحبّ هذا الوطن في ماضيه حبًّا جمًّا، وقد أحبّه في حاضره حبًّا أشدّ، لذلك ما فتئ يدعو إلى الجدِّ والنشاط في مختلف ميادين العمل لاستعادة ذلك المجد الباهر:

فاض الزمانُ من النبوغ فهلُ فتّى
غَمَرَ الزمانَ بعلمه وبيانه
أين التجارةُ وهي مِضمار الغنَى؟
أين الصناعةُ وهي وجهُ عَنايه؟^{١٥}
أين الجوادُ على العلوم بماله؟
أين المشارِكُ مصرَ في فدائِه؟
أين الزراعةُ في جنانٍ تحتكم
كخمايلِ الفردوس أو كجنانِه؟

مرّت على مصر حِقبة من الزمن كانت مقاليدُ أمورها في غير يد أبنائها فصارت إلى غير ما يريده أبنائها البررة المخلصون:

أرى وطنًا تحيّر ناشئوهُ
فما يَجِدون من عملٍ قواما^{١٦}
فلا أُسسُ التجارة فيه قرّتْ
ولا رُكنُ الصناعة فيه قاما
مدارسُ لم تُهيئْهم لكسبِ
ولم تبني الحياةَ ولا النظاما

ولذلك صارت حالة أبنائِ الذين علّموا الدنيا الفنَّ والصناعةَ إلى ما يؤلم النفس:

تَجِدُ الذين بنى المسلّة جُدّهم
لا يُحسِنون لإبرة تشكيلا

والآن فلننظر كيف يُريد هذا الوطن.
يريده قبل كلّ شيءٍ متحدًا:

إلامَ الخلفُ بينكمُ إلاما
وهذي الضجّة الكبرى علاما؟
وفيمَ يكيّدُ بعضُكمُ لبعضٍ
وتُبدون العداوةَ والخصاما؟
وأين الفوزُ؟ لا مصرُ استقرّتْ
على حالٍ ولا السودانُ داما

^{١٥} العنان: بفتح العين السحاب.

^{١٦} القوام: ما يقيم الإنسان.

فلا قوّة إلاّ بالاتحاد:

صوت الشعوب من الزئير مُجمَعًا فإذا تفرّق كان بعض نباح
يُريدُ هذا الوطنَ حرًّا، طليقًا من القيود التي قعدت به عن السيرِ إلى الأمام:

يا قوم، هذا زَمَنٌ قد رمى بالقيدِ واستكبرَ عن سَحْبِهِ
لو أنّ قيّدًا جاءهُ من علِّ خَشِيتُ أن يَأبَى على رَبِّهِ

يأبى هذا القيّد ولو كان من الجُمان:

شُهدُ^{١٧} الحياة، مشوبَةً بالرقِّ، مثلُ الحنظلِ
والقيّد لو كان الجُما نَ مُنظَّمًا لم يُحمَلِ

وإذا هناّ المعتقلين السياسيين بفكِّ اعتقالهم عاد إلى حريّة الوطن فقال:

وَجَدَ السجينُ يَدًا تُحطّمُ قيدهُ من ذا يُحطّمُ للبلادِ قيودا؟

وكيف الوصولُ إلى تحقيق هذه الأمنية؟

هناك فكرتان أساسيتان تعودان في شعره، بل قاعدتان أوليان يريد أن يبني عليهما
إنهاض الوطن وإسعاده: الأولى العُلم والقوّة، والثانية الدستور والشورى، وله في كلا
المعنيين ما لا نعرف مثله لشاعرٍ قبله:

إن سَرَكَ الملكُ تَبَنِيهِ على أُسِّس فاستنهِض البانين: العلم والأدبا
وارفَع لها من حبالِ الحقِّ قاعدةً ومُدَّ من سببِ الشورى له طُنْبًا

وترى هاتين الفكرتين مفصّلتين في شتى منظوماته.

^{١٧} شُهدُ: جمع شُهدة وهي العسل.

أما العلمُ والقوَّةُ فحيث يقول:

المُلْكُ والدُّوَلَاتُ ما بيّني القنا والعلمُ، لا ما ترفعُ الأحلامُ

فالسيفُ والقلمُ سياجُ الوطنِ ومظهرُ شرفه وعزّه:

ومن شَرَفِ الأوطانِ أن لا يفوتها حُسامٌ مُعِزٌّ، أو يراعُ مُهدَّبٌ

فالحسامُ المُعِزُّ هو الذي يصون الحقوق:

فَقُلْ لبانٍ بقولِ رُكنِ مملكةٍ
لا تلتمسُ غَلَبًا للحقِّ في أُمِّ
لا خيرَ في منبرٍ حتى يكونَ له
وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عُدَّتِهِم
على الكتائبِ يُبني الملكُ لا الكتُبِ
الحقُّ عندهمُ معنَى من الغلبِ
عُودٌ من السُّمْرِ أو عُودٌ من القُضْبِ
حتى يكونوا من الأخلاقِ في أهُبِ

واليراعُ المهدَّبُ هو دواءُ النفوس:

تَرَكَ النفوسِ بلا علمٍ ولا أدبٍ
تَرَكَ المريضِ بلا طبٍّ ولا آسٍ

والجهلُ مضيعةُ الحقوق:

بالعلمِ تمتكُ الدنيا ونضرتها
ولا نصيبُ من الدنيا لجهالٍ

لذلك تراه يُقدِّسُ مهمَّةَ المعلمِ، وإذا كان بسمرِك قد قال بعد حرب السبعين: «غلبنا جارتنا بمعلمِ المدرسة.» فإن شاعرنا يقول:

أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي
يَبني وَيُنشِئُ أنفَسًا وعقولًا؟

ثمَّ يجمعُ بين القوة والعلم فيقول:

وما الحكم أن تنقضي دولة
ولكن على الجيش تقوى البلا
فأين النبوغ وأين العلو
وتقبل أخرى وأعوانها
د وبالعلم تشتد أركانها
م وأين الفنون وإتقانها

أما الشورى وأما الدستور فيكاد لا يقصدُ قصيدةً إلا جعل لهما منها النصيبَ
الوافر؛ لأن:

شرَّ الحكومه أن يُساس بواحد
ولذلك يقول مخاطبًا توتنخ أمون:

زمان الفرد يا فرعون ولى
وأصبحت الرعاة بكل أرض
فؤاد أجل بالدستور دنيا
ودالت دولة المتجبرينا
على حكم الرعية نازلينا
وأشرف منك بالإسلام دينا

فالدستور هدى الحكام ومفخرة الملوك:

وجواهر التيجان ما لم تتخذ
وخذوا بناء الملك عن دستوركم
من معدن الدستور غير صحاح
إنَّ الشرع مثقف الملاح

ولذلك يُهيب بطلاب العلم أن:

كونوا سياج العرش، والتمسوا له
وتفسيوا الدستور تحت ظلاله
نصرًا من الملك العزيز مؤزرا
كنفًا أمش من الرياض وأنصرا

بل إنَّ الشُّورى من الدين: قال يخاطبُ سلطانَ تركيا منذ ربع قرن:

الرأى رأى أمير المؤمنين إذا حارت رجالٌ وضلت في مرائيها
وإنما هي شورى الله جاء بها كتابه الحقُّ يُعليها ويُغليها

هكذا أحبَّ شوقي مصرَ في ماضيها المجيد، وفي حاضرها المتوثب، حبًّا يقرب
من العبادة، وهو يحبُّها كذلك في مستقبلها، أي في شبَّانها، فهم معقدُ آمالها ومعقلُ
رجائها:

يا شباب الديار، مصرٌ إليكم ولواء العرين للأشبال
كلما روعتْ بشبهةٍ يأس جعلتكم معاقل الآمال

وهم أبهى حلاها:

وطنٌ يرفُّ هوًى إلى شبَّانه كالروض رقتُهُ على ريحانه
هم نظمٌ جليته وجوهرٌ عقده والعقدُ قيمته يتيمٌ جمانه
قل للشبابِ زمانكم متحرِّكٌ هل تأخذون القسطَ من دورانه؟

فلا بدَّ من مجارة الزمان في دورانه، ولا بدَّ من الإقدام والعمل:

تحرِّكٌ، أبا الهول، هذا الزمانُ تحرَّك ما فيه حتى الحجرُ

فشعارُ هذا العصر الإقدام:

قل للشبابِ بمصر: عصركم بطل أس الممالك فيه همةٌ وحجى
بكلُّ غايةٍ إقدام له ولع لا الترهات لها أس ولا الخدع

يُريد شَبَّانَ مصر طموحين إلى المعالي لا خانعين قانعين:

فَعَالِي فِي بَنِيكَ الصَّيْدِ غَالِي فَقَدْ حُبَّ الْغَلُوِّ إِلَى بَنِينَا
شَبَابٌ قَنَّعٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَبُورِكَ فِي الشَّبَابِ الطَّامِحِينَا

ولكنه يريدهم مستمسكين بالإنصاف:

رَبُّوا عَلَى الْإِنصَافِ فَتَيَانَ الْحَمَى تَجِدُوهُمْ كَهَفَ الْحَقُوقِ كَهُولَا

متخلفين بالكرم والصفح:

كِرْمٌ وَصَفْحٌ فِي الشَّبَابِ وَطَالَمَا كَرَّمَ الشَّبَابُ شِمَائِلًا وَمِيُولَا
قَوْمُوا اجْمَعُوا شُعْبَ الْأَبْوَةِ وَارْفَعُوا صَوْتَ الشَّبَابِ مُحِبِّبًا مَقْبُولَا

على أن يكونوا مع ذلك معتصمين بحبل الله، فصوتهم عند الله مستجاب:

شَبَابَ النَّيْلِ إِنَّ لَكُمْ لَصَوْتًا مَلْبِي حِينَ يُرْفَعُ مُسْتَجَابَا
فَهَزُّوا الْعَرْشَ بِالْذَعْوَاتِ حَتَّى يُخَفَّفَ عَنْ كِنَانَتِهِ الْعَذَابَا

وهل في استنهاض الشباب أبلغ وأحرُّ من هذه النعمة المنبعثة من سُويداء قلبه:

يَا شَبَابَ الْغَدِ، وَابْنَايَ الْفَدَى لَكُمْ، أَكْرِمٌ وَأَعَزُّ بِالْفِدَاءِ
هَلْ يَمُدُّ اللَّهُ لِي الْعَيْشَ، عَسَى أَنْ أُرَاكُم فِي الْفَرِيقِ السُّعْدَاءِ
وَأَرَى تَاجَكُمُ فَوْقَ السُّهَى وَأَرَى عَرْشَكُمْ فَوْقَ نُكَاةِ
مَنْ رَأَى قَالَ مِصْرُ اسْتَرْجَعْتَ عَزَّهَا فِي عَهْدِ «خَوْفُو» وَ«مَنَاةِ»
إِنَّمَا مِصْرُ إِلَيْكُمْ وَبِكُمْ وَحَقُوقُ الْبِرِّ أَوْلَى بِالْقَضَاءِ
عَصْرَكُمْ جُرٌّ وَمُسْتَقْبَلُكُمْ فِي يَمِينِ اللَّهِ خَيْرُ الْأَمْنَاءِ
لَا تَقُولُوا «حَطَّنَا الدَّهْرُ» فَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ خِيَالِ الشَّعْرَاءِ
هَلْ عَلِمْتُمْ أُمَّةً فِي جَهْلِهَا ظَهَرَتْ فِي الْمَجْدِ حَسَنَاءَ الرِّدَاءِ

شوقي

فخذُوا العلمَ على أعلامه واطلبوا الحكمةَ عند الحكماءِ
واقراءوا تاريخكم واحتفظوا بفصيح جاءكم من فُصحاءِ
واطلبوا المجدَ على الأرضِ، فإن هي ضاقتُ فاطلبوه في السماءِ

هذه الأبيات قالها في سنة ١٩١٤ وهي تُعبّرُ عن الأملِ المنشود، فاسمعه في سنة ١٩٢٤ يتغنّى بالأملِ المحقّق:

يا مصرُ أشبالُ العرينِ ترعرعتُ ومشتُ إليك من السجونِ أُسودا
قالوا: أتُنظِمُ للشبابِ تحيةً تبقى على جيدِ الزمانِ قصيدا
قلتُ: الشبابُ أتمُّ عقدِ مآثر من أن أزيدَهُمُ الثناءَ عُقودا
قبِلتُ جهودَهُمُ البلادُ وقبِلتُ تاجًا على هاماتهمِ مَعقودا

ترون من هذا كيف أحبّ مصر في مستقبلها، أي في شبابها، وكأنني به يعتذر إلى هذا الجيل الآتي عن الجيل الحاضر:

إن أسأنا لكم أو لم نُسئِ نحنُ هلَكى فلکم طول البقاءِ

كما يعتذر إلى الجيل الحاضر عن الجيل الماضي:

هذا جناهُ عليكمُ أبأؤکم صبرًا وصفحًا فالجُناةُ كرامُ

فإن ما فينا من نقصٍ يُمهّد العذرَ للمتقدمين:

فإنّا لم نُوقِ النقصَ حتى نطالبَ بالكمالِ الأولينا

فهل جاد وتّر الوطن في قيثارة الشعر بأعلى من هذه الأنغامِ وأغلى منها؟ وهل نبض القلبُ بأحرّ من هذه الدعواتِ لإذكاءِ نارِ الوطنيةِ واستثارة الروحِ القوميةِ؟

وإذا كانت مصر، وأثار مصر، ومدنية مصر، وعرش مصر، وشبان مصر، تكادُ
تكون القرارَ في جميع ألقانه، فإنه ما نسي ذلك الشرق العاثر:

وما الشرقُ إلا أسرةٌ أو قبيلةٌ تلمُّ بنيتها عند كلِّ مصابٍ

وما غمط حقَّ قطرٍ من الأقطار التي تربطها بمصر رابطة من روابط الجوار:

رُبَّ جارٍ تَلَفَّتْ مصرُ نُؤْلِيهَ هِ سؤالَ الكريمِ عن جيرانِه

أو روابط اللغة:

ونحن في الشرقِ والفصحى بنو رَجِمٍ ونحن في الجرح والآلام إخوانُ

أو روابط الدين:

شعوبك في شرقِ البلادِ وغربها كأصحابِ كهفٍ في عميقِ سُبَاتِ
وهذا زمانُ أرضه وسماؤه مجالٌ لمقدامِ كبيرِ حياةٍ
فقلُّ: ربُّ، وفقُّ للعظامِ أمِّي وزينُّ لها الأفعالَ والعزماتِ

حتى غمر شعره هذا الشرقُ فكان شريكه في أفراحه ومواسيه في أتراحه:

كان شعري الغناء في فرح الشر قِ وكان العزاء في أحزانه

فيتألم لحالة هذا الشرق:

وانظر الشرق كيف أصبح يهوي وانظر الغرب كيف أصبح يصعدُ
وتأمل ممالكا وبلادًا لمس الدهر عقدتها فتبددُ
كنت تحميه والسيوف عوارٍ من له اليوم بالحسام المجردُ

شوقي

ويتوجع لتخاذل أبنائه واستكانتهم:

متفككون فما تضم نفوسهم
رقدوا وغرهم نعيم باطل
ثقة ولا جمع القلوب صفاء
ونعيم قوم في القيود بلاء

لا سيما وهو يقابل بين الماضي والحاضر:

من مشرق الأرض الشمس تظاهرت ما بال مغربها عليه أدبلا

ولقد نظم في بغداد ودمشق ولبنان، مهنئاً أو معزياً أو مواسياً، ما قد يكون قصر عنه شعراء العراق أو الشام أو لبنان، ولكنّه في عواطفه الفيضة على هذه البلاد الشقيقة لا ينسى مصر:

نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطناً
ولا سريراً ولا تاجاً ولا علماً

أحبّ وطنه ومواطنيه، وحبّبه وحبّبهم إلى الجميع:

وزينب إن تاهت وإن هي فاخرت
فما قومها إلا العشير المحبب

ومن أجل كل هذا اشتركت جميع البلاد العربية بفجعة مصر بابتها البار، وعقدت له حفلات التأبين والرثاء كأن المصاب مصابها، وها هي اليوم قد أوفدت أنجب أبنائها، من العراق، إلى فلسطين وشرق الأردن، إلى الشام ولبنان؛ لحمل عزاء الملايين من الناطقين بالضاد إلى إخوانهم أبناء مصر؛ لأن شوقي الذي تغنى بشعره، وهو شاعر الإسلام، أبناء سائر الأديان، يدّعيه، وهو شاعر مصر، أبناء سائر الأوطان، فكان أعظم دعاية حية لمصر في حياته وفي مماته، فحق له أن يزهو ويقول كما قال:

رؤاة قصائد فاعجب لشعر
بكل محلّة يرويّه خلق

وتر الحكمة

وهناك وترٌ ثالثٌ شدّه أميرُ الشعراءِ إلى قيثارته كما شدّه غيره من الشعراء، عنيتُ به وتر الحكمة، أو الاجتماعيات، وله فيه أيضًا الشيء الكثير، ولا عجب أن تكثر الحكم والنصائح وضروبُ الإرشاد في شعر من تغنى بالدين والوطن، وقد أشار شوقي نفسه إلى ذلك، بل رأى الحكمة فنًّا من فنون الشعر الرئيسية:

نصيحةٌ ملؤها الإخلاصُ صادقةٌ والنصحُ خالصُهُ دينٌ وإيمانٌ
والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفةً أو حكمةً، فهو تقطيعٌ وأوزانٌ

وقد امتاز بما استخرجه من هذا النوع أيضًا وطبعه بطابعه الخاص، شأنه فيه شأنه في الألحان التي استنبطها من سائر الأوتار.

فقد امتازت حكمه واجتماعياته بسهولة معناها ورؤاء مبنائها، فجمعت إلى أبهة الحكمة وجلالها عذوبة الحياة وطلاوتها، ففلسفته في الحياة فلسفةٌ باسمه، لا عبوس فيها ولا تجهّم، فهي الحكمة تحمل زهراً، وهي فلسفةٌ هيئةً سهلة، لا تصعب فيها ولا تعقيد، بل تبدو وضّاحة المذهب، سهلة المطلب، لا يقصد منها إلا إلى العدل والوثام ومكارم الأخلاق.
يدعو إلى الإنصاف:

فهو الذي يبني الطباعَ قويمَةً وهو الذي يبني النفوسَ عدولا
ويُقيمُ منطقَ كلِّ أعوجٍ منطِقٍ ويُريه رأياً في الأمورِ أصيلاً

وإلى الصبر لإدراك المنى:

كم صعّبَ اليومُ من سهلٍ هممتَ به وسهّلَ الغدُ في الأشياءِ ما صعّبَا

وإلى العدل في تدبير الملك:

والعدلُ في الدُولِ أَسُّ ثابتٌ يُفني الزمانَ ويُنفدُ الأجيالا

وإلى الرفق في سياسة الناس:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها
يسكن الوحش للوثوب من الأس
فلها ثورة وفيها مضاء
ر فكيف الخلائق العقلاء

وإلى الثبات وتعاون الأجيال:

والناس باني بناءٍ أو مُتَمِّمُهُ
تعاونٌ لا يحلُّ الموتُ عُروتهُ
وثالثٌ يتلافى منه ما انهدما
ولا يرى بيد الأرزاءٍ منفصما

يقول بالتسليم لإرادة الله فهو صاحبُ المشيئةِ العليا:

ربُّ إن شئتَ فالفضاءُ مضيقُ
وإذا شئتَ فالمضيقُ فضاءُ

ولكنه يُنددُ بالاستسلام لخطوب الدهر:

لا تقولوا «حطنا الدهر» فما
هو إلا من خيال الشعراءِ

كما يُبرئُ القدر مما نحمله من نتائج إهمالنا وتهاوننا:

قال ناسٌ صرعةٌ من قدرٍ
وقديماً ظلم الناسُ القدرُ

يُنادي بوجوب تعليم المرأة وتربية الأسرة:

وإذا النساءُ نشأنَ في أميةٍ
ليس اليتيمُ من انتهى أبواه من
رَضَعَ الرجالُ جهالةً وخمولا
فأصابَ بالدنيا الحكيمَةَ منهما
ويعسن تربيةَ الزمانِ بديلا
إنَّ اليتيمَ هو الذي تلقى له
أما تخلتُ أو أبا مشغولا

شوقي شاعريته ومميزاتها

يرى السعادة في غير ما يراه الناس عادةً:

فإن السعادة غير الظهو ر، وغير الثراء، وغير الترف

ويرى رأي عنتره الذي قال:

لا يحمل الحقد من تعلق به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب

فيقول بالمعنى عينه:

وإن للمجد آفات إذا جمعت وجدتتها اثنتين: الحقد والغضب

أما الحسد فلا يتجه إلا إلى الفضل:

آية الفضل أن تُعادى وتحسد

وأما الأخلاق فقد أكثر من ذكرها والحث عليها، فبها تحيا الأمم، وبها يسعد الأفراد، وله فيها بيت لا نعرف له ضريحاً في كثرة الاستشهاد به: يورده الخطباء في خطبهم، ويضمنه الشعراء قصائدهم، ويردده الناس في أحاديثهم، بل إن مسرحاً من مسارحنا الوطنية اتخذه شعاراً له فنقشه بحروف كبيرة فوق الملعب:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

وقد يُعيد هذا المعنى مراراً لترسيخه في العقول وطبعه في النفوس، فيقول تارة:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً

وتارة:

وما السلاح لقوم كل عدتهم حتى يكونوا من الأخلاق في أهب

ومرة أخرى:

تخلِّق الصفح تسعدُ في الحياةِ به فالنفسُ يسعدُها خلُقٌ ويُسقيها
فعلِها تُبنى الممالكُ وتشادُ:

على الأخلاقِ خطُّوا الملكُ وابنوا فليس وراءها للعزُّ ركنُ
وبها دون سواها ترتقي الشعوبُ:

وليس بعامرٍ ببيانٍ قومٍ إذا أخلاقهم كانت خرابا
وإذا هي سلمتُ فكلُّ شيءٍ سالمُ:

ولا المصائبُ إذ يُرمى الرجالُ بها بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ
أمَّا طريقتهُ في النصحِ والإرشادِ فالملاينةُ والتلطفُ:

أفَّةُ النصحِ أن يكونَ لجأجا وأذى النصحِ أن يكونَ جِهارا
ولا سيما إذا كان النصحُ موجَّهاً إلى الشبان:

قلُّ للبنينِ مقالَ صدقٍ واقتصدُ ذرُعُ الشبابِ يضيقُ بالنصَّاحِ
ويجب أن يوجَّه النصحُ إلى العقلِ حيناً، وإلى القلبِ حيناً آخر:

والنصحُ متَّهمٌ وإنَّ نثرتهُ كالدرِّ الشفاءُ
أذنُ الفتى في قلبه حيناً، وحيناً في نُهاه

شوقي شاعريته ومميزاتها

ويقتبس غالباً حكمه ونصائحه من حوادث التاريخ:

واقرءوا آداب مَنْ قَبْلَكُمْ رَبِّمَا عَلَّمَ حَيًّا مِنْ عَبْرٍ

فالتاريخ أبو العبر، ولا سيما تاريخ مصر:

إِنَّ مِصْرَ رِوَايَةَ الدَّهْرِ فَاقِرًا عِبْرَةَ الدَّهْرِ فِي الْكِتَابِ الْعَتِيقِ

أكتفي بهذا القدر من حكمه، ففيه وفي ما تقدّم إيراده من هذا النوع في شعره الديني وشعره الوطني ما يغني عن الإسهاب وزياد التبسط؛ للدلالة على أن الحكمة قد جاءت في تضاعيف قصائده بلا تصنع ولا تكلف في لفظها وفي معناها، فهو لا يتوخى فيها التعمق في التحليل ولا الغوص في ثنايا الفكر والنفس ليظفر بالحقائق، بل يتناولها مما يخطر ببال كل إنسان، وينطق به كل لسان، ثم ينثر دقائقها عفواً في بيت أو بيتين، أو في جملة اعتراضية أو شطرة من بيت، فتجيء جليّة القصد قريبة النفع، كأنها في روض شعره الثمر الشهى بين الزهر البهي، ويجيء شعره معها غذاءً للعقول ورياً للنفوس، كما هو بهجة للقارئ ونعمة للسامع.

الوتر المصور

وهناك أيضاً وترٌ طالما غنّانا بما يطرب الأسماع، ويفتن الأبصار كذلك، كأنّ نغماته تتحوّل ألواناً تصوّر، هو وتر الوصف: وصف الأشياء ووصف الأشخاص.

رأى شوقي في حياته كثيراً وعرف كثيراً فوعى كثيراً.

رأى مصر وآثارها الخالدة، رأى أوروبا ومعالمها العامرة، رأى الشام وجبالها

الشاهقة، عاشر السلاطين والملوك وطاف بين كثير من الأمم والشعوب.

وكان ما كان في عينيه من ارتجاج عصبي، جعلهما كالزئبق الرجراج، قد ساعده على أن يستجمع بلحظة عين ما لم يره غيره، فكان بنظره الجوّال يتناول دقائق المرئيات فيستوعبها في حافظته، وما لم يره بأمر عينه نظر إليه بعين خياله؛ لمحّة عين أو لمحّة قلب كانت تكفيه ليطلع في خاطره رسم الأشياء والأشخاص، ثم يجيء بكل ذلك وصفاً أخذاً، وصوراً ضاحكة خلابة.

شوقي

يطول بنا الوقوف عند كل ما وصف وصوّر من آثار الطبيعة وآثار البشر؛ مصر وكل ما فيها، والأستانة، والبوسفور، وأيا صوفيا، وباريس، وغاب بولونيا، ودمشق، ولبنان، والهلال، والربيع، والمرقص ... إلخ، ولكنني أقتطف من ذلك، على سبيل المثال، بعضَ مقاطع يكادُ كلُّ منها يكون صورةً شمسيةً أو لوحةً فنيةً دقيقةً التفصيل، مستكملةً الحسن، وهكذا يتحوّل وحيّ الشعر ونغمُ الموسيقى ريشةً تصوّر بالألوان، وهذه هي صلةُ النسب بين الفنون الجميلة، وهكذا يتحوّل هذا الباب في ديوان شوقي متحفًا عامرًا ببدائع الرسم والتصوير.

هل زرتم هيكل أنس الوجود، ورأيتم مياه النيل قد كادت تغرقه ...؟ وإلا فانظروا صورته في هذه الأبيات:

| | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| قِفْ بتلك القصورِ في اليمِّ غرقى | مُمسكًا بعضُها من الدُّعْرِ بعضا |
| كعذارى أَّخْفِينِ في الماءِ بضًا | سابحاتٍ به، وأبدينَ بضًا |
| شابَ من حولها الزمانُ وشابت | وشبابُ الفنونِ مازال غضًا |
| رُبَّ نقشٍ كأنما نفض الصا | نحُ منه اليدينِ بالأمس نفضا |
| ودُهَانِ كلامِ الزيت مرَّت | أعصرُ بالسراجِ والزيتُ وضًا |
| وخطوطٍ كأنَّها هُدْبُ ريمٍ | حُسْنَتْ صنعةً وطولًا وعرضًا |
| وضحايا تكادُ تمشي وترعى | لو أصابت من قدرة الله نبضا |
| ومحاريب كالبروج بنتها | عَزَمَاتُ من عزمةِ الجنِّ أمضى |

ومن لم يرَ قبرَ توتنخ آمون وما وجدَ فيه مستكشفُهُ من جواهرَ وطيوبِ يومَ:

أفضى إلى ختم الزمان ففضّه

وحبا إلى التاريخ في محرابه

فلينظرُ إليه مصوّرًا في هذا البيت:

وقبرًا كان من حُسنِ وطيبِ

يُضيء حجارةً ويضوعُ طينا

الأكثر من أن لم يروا الغواصة ولكنهم يرونها، كما وصفها شوقي، مرسومة على لوحة السينما:

ودبابة تحت العباب بمكمن
هي الحوت أو في الحوت منها مشابهة
أبث لأصحاب السفين غوائلًا
خئون إذا غاصت غدور إذا طفت

أمين ترى الساري وليس يراها
فلو كان فولاذًا لكان أهاها
والأم نابًا حين تفغر فاهها
ملعنة في سبجها وسراها

وشاهدوا بعد ذلك في قصيدة أو صورة أخرى كيف تهاجم هذه الغواصة السفينة وتغرقها:

بعث البحر بها كالموج من
لمستها للمقادير يد
ضربتتها وهي سر في الدجي
وجفت قلبًا وخارت جوجوًا
طعنت فانبجست فاستصرخت

لجج السند وخلجان الخرز
تلمس الماء فيرمي بالشرر
ليس دون الله تحت الليل سر
ونزت جنبًا وناءت من أخر
فأتاها حينها فهي خبر

أما وصفه للطيارة منذ ثماني عشرة سنة، فلم نقرأ وصفًا يدانيه لشعراء الأمم التي ابتدعت هذا المركب الهوائي:

نصفه طير ونصف بشر
حمل الفولاذ ريشًا وجرى
وجناح غير ني قادمة
ودنابي كل ريح مسها
يتراءى كوكبًا ذا ذنب
فإذا جاز الثريا للثرى

يا لها إحدى أعاجيب القضاء!
في عنانين له نار وماء
كجناح النحل مصقول سواء
مسها صاعقة من كهرباء
فإذا جد فسهمًا ذا مضاء
جر كالطاووس ذيل الخيلاء

واسمعوا وصفه معركة «أستريز» الذي انتصر فيها نابوليون، الملقَّب بالنسر، على إمبراطوري روسيا والنمسا، فعرفت بمعركة الإمبراطرة الثلاثة، وهي صورةٌ لم يرسم مثيلاً لها غير فيكتور هوجو شاعر نابوليون.

حَوْلَ أُسْتَرِلِيزَ كَانَ الْمَلْتَقَى
وَاصْطَدَامُ النَّسْرِ بِالْمُسْتَنْسِرِينَ
وُضِعَ الشُّطْرُنُجُ فَاسْتَقْبَلَتْهُ
بِبِنَانٍ عَابِثٍ بِالْعَابِينَ
فَإِذَا الْمَلِكَانَ هَذَا خَاضِعُ
لَكَ فِي الْجَمْعِ وَهَذَا مُسْتَكِينُ
صَدَّتْ شَاةُ الرُّوسِ وَالنَّمْسَا مَعًا
مَنْ رَأَى شَاهِينَ صَيْدًا فِي كَمِينِ؟

وهذه صورة لدمشق من نوع تصوير المناظر الطبيعية:

دَخَلْتِكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ ائْتَلَقَ
وَوَجْهَكَ ضَاكُ الْقَسَمَاتِ طَلَّقَ
وَتَحْتَ جَنَانِكَ الْأَنْهَارُ تَجْرِي
وَمَلَأَ رَبَاكَ أَوْرَاقُ وَوُرُقُ

وترى كلَّ ألوانِ الخيالِ تتسابق تحت ريشته في وصف لبنان:

لِبْنَانُ وَالْخُلْدُ اخْتَرَاكَ اللَّهُ لَمْ
يُوسَمَ بِأَزِينٍ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
مَلِكُ الْهَضَابِ الشُّمِّ سُلْطَانُ الرَّبِيِّ
هَامُ السَّحَابِ عَرُوشُهُ وَتَخَوُّتُهُ
وَكَانَ أَيَّامَ الشُّبَابِ رِبُوعُهُ
وَكَانَ أَحْلَامَ الْكِعَابِ بِيوتُهُ
وَكَانَ رِيحَانَ الصَّبَا رِيحَانُهُ
سُرُّ السَّرُورِ يَجُودُهُ وَيُوقِوتُهُ
وَكَانَ أَثْدَاءَ النَّوَاهِدِ تِينُهُ

زُرْتَمَ مَعْرَضَ الصُّورِ الْأَخِيرِ، وَرَأَيْتَمَ فِيهِ لُوحَاتٍ كَثِيرَةً تَمَثَّلُ نَخِيلَ مِصْرَ، فَهَلْ رَأَيْتَمَ
أَبْدَعَ مِنْ هَذَا التَّصْوِيرِ:

مَآذُنُ قَامَتِ هُنَا أَوْ هُنَاكَ
ظَوَاهِرُهَا دَرَجٌ مِنْ شَدَبٍ
وَلَيْسَ يُؤَدُّنُ فِيهَا الرِّجَالُ
وَلَكِنْ تَصِيحُ عَلَيْهَا الْغُرْبُ ...
تُخَالُ إِذَا اتَّقَدْتُ فِي الضُّحَى
وَجَرَ الْأَصِيلُ عَلَيْهَا اللَّهْبُ
وَطَافَ عَلَيْهَا شِعَاعُ النَّهَارِ
مِنَ الصُّوِّ أَوْ مِنْ حَوَاشِي السُّحْبِ

شوقي شاعريته ومميزاتها

وصيفةً فرعونَ في ساحةٍ من القصر واقفةً ترتقبُ
قد اعتصبتُ بفصوصِ العقيقِ مفصلةً بشذورِ الذهبِ
وناطت قلائدَ مُرجانها على الصدرِ واتشجتُ بالقصبِ
وشدّت على ساقها مئزرًا تعقد من رأسها للذنبِ

وزاد، وهو ما لا يستطيعه المصور:

أهذا هو النخلُ ملكُ الرياضِ أميرُ الحقولِ عروسُ العزبِ
طعامُ الفقيرِ وحلوى الغنيِّ وزادُ المسافرِ والمغتربِ

وإذا وصف هذا النخلَ في يومِ غائمٍ قال:

والنخلُ متشجُّ بالغيَمِ تحسبهُ هيفَ العرائسِ في بيضٍ من الأزْرِ

وإذا وصف النيلَ صوره بالألوان:

النيلُ العذبُ هو الكوثرُ والجنةُ شاطئُهُ الأخضرُ
ريانُ الصفحةِ والمنظرُ ما أبهى الخلدُ وما أنصرُ
حبشيُّ اللونِ كجيرتهِ من منبعهِ وبُحيرتهِ
صَبغُ الشطّينِ بسمرتهِ لونًا كالمسكِ وكالعنبرِ

ففي كل ما تقدّم يُرينا الشاعرُ هذه الموصوفاتِ رأيَ العينِ مع كثيرٍ من الرونق والرواء.

وهو يجيد وصف المعنويات إجادته وصف المحسوسات، فيجعل البعيد قريباً، والغائب شاهداً، والخفيّ ظاهراً، كلُّكم يعرف هذين البيتين، وقد لخص فيهما رواية الحب بجميع فصولها الطويلة:

نظرةً فابتسامةً فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ
ففراقٌ يكونُ فيه دواءٌ أو فراقٌ يكونُ منه الداءُ



شوقي ونجله عليّ وحُسين في «الحمراء» بإسبانيا قبل عودته من المنفى.

وإليك تلخيص النظام الحكومي في الإسلام:

فرسمت بعدك للعبادِ حكومةً لا سُوقَةً فيها ولا أمراءَ
اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحدَه والناسُ تحتَ لوائها أكفاءُ
والدينُ يُسرُّ والخلافةُ بيعةُ والأمرُ سُورَى والحقوقُ قضاءُ
الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوي القوم والغُلواءُ

أوليس في هذه الأبيات القليلة نصوصٌ وأحكامٌ مفصَّلةٌ في عشرات المواد من دساتير الأمم؟

شوقي شاعريته ومميزاتها

وهذا تلخيص لضروب الحكام الذين توالوا على عرش بني عثمان:

قياصرُ أحياناً خلائف تارةً خواقينُ طوراً والفخارُ المقلَّبُ

ومن الصور ما لا تكثرُ فيه التفاصيل، بل إنَّ خطوطاً قليلةً تمثل لنا أوفى تمثيل ما أرادَه المصوِّر، وعند شوقي الكثير من هذه الصور السريعة العجلى في بيتٍ أو شطرٍ من بيت.

منها صورة المدفع عند إطلاقه:

إذا عصف الحديدُ احمرَّ أفقُ على جنَبَاتِه واسودَّ أفقُ

وصورة فرح الجنود:

طارت قناها سروراً عن مراكزها وألقت الغمدَ إعجاباً مواضيها

وصورة الفارس المغوار (أنطونيو) في المعركة:

قد جُنَّ تحتي جوادي فهو عاصفةٌ وجُنَّ نصلي بكفِّي فهو إعصارُ

وصورة أقسام الجيش المنكسر وفراره:

لَمَّا صدعتَ جناحيهم وقلبَهُم طاروا بأجنحةٍ شتَّى من الرعبِ

وصورة أسراب الطيارات، وهي تتضاءلُ كلِّما حلقت صعوداً:

ذهبتَ تسمو فكانت أعقباً فنسورا فصقورا فحماما

وصورة سوق الإحسان والبائعات:

جبريلُ يعرضُ والملائكُ باعةٌ أين المساومُ في الثوابِ المشتري

شوقي

وإذا وصف يدَ الضريرِ تتلمَّسُ الأشياءَ قال:

ويدُ الضريرِ وراءها عينُ ترى

وهل أبدعُ وأروع من هذه الصورة لاستماع الليل نداء المغني الشجي:

يسمُعُ الليلُ منه في الفجرِ «يا ليل — ل» فيصغي مستمهلاً في فراره

ويدخلُ في أنغام هذا الوتر — وتر الوصف — المدح والثناء؛ لأنَّهما ما خرجا عن أن يكونا وصفاً لأخلاق الناس وطباعهم، ووصفاً لأعمالهم وآثارهم، وهنا كان لنقادِ شوقي مجالاً ليؤاخذوه بتعدُّد ممدوحيه واختلافهم، ومغالاته في الإطنابِ بهم والإغراق في أوصافهم؛ فاستنكروا الأنغامَ المتضاربةَ المتنافرةَ التي أخرجها من هذا الوتر. أما تعدُّد الممدوحين واختلافهم، فيشفعُ بالمادح أنه توخَّى دائماً غرضاً واحداً في مدحهم، فإذا مدح على التوالي السلطانَ عبد الحميد، ورجالَ الاتحاد والترقي الذين خلعوه، وإذا أطنب ذكر رجالٍ أنقره، بعد أن أطنب بذكر سلاطين الأستانة، فإنه قد غيرَ اسم الممدوح ولم يغيرَ مقصده من المدح، أو إن شئتَ قولوا إنه بدلَ العنوانَ ولم يُبدلْ ما تحت العنوان، فهو دائماً يطالب ممدوحه بالإصلاح، ونشر الثقافة والعلم، وإقامة العدل، وبناء الملك على الشورى والدستور، ولقد قلنا في غير هذا الموقف^{١٨} إنَّ الشاعرَ شاعرٌ أياً كان الرويُّ الذي يختاره لقصيدته ما دامت نفسه حساسة، وقريحته فيأضة بالشعور، وهل اسم الممدوح في شعر شوقي سوى الرويِّ، وهو القائل:

ولي غرَّر الأخلاق في المدح والهوى

أما مغالاته في هذا النوع من الوصف، ووضعهُ الرجالَ الذين يصفهم — مدحاً أو رثاءً — فوقَ عامَّة البشر، فإنه يرجعُ إلى وصفه الناسَ كما يجب أن يكونوا، لا كما هم، ولهذا المذهب الأدبي أنصاره، وحاملُ لوائه الشاعر الفرنسي «كورنيل» في رواياته التمثيلية، ونقيضه فيه معاصره الشاعر «راسين»، فقالوا: إن الأول صور أبطال رواياته

^{١٨} راجع البحث بهذا الموضوع في فصل شوقي شاعر الأمراء.

كما يجب أن يكونوا، والثاني صورهم كما هم؛ لذلك نعجبُ بأبطال الأول، ولكننا نحبُّ أبطال الثاني، ولذلك أيضًا يرتاحُ الكثيرون إلى مدائح شوقي؛ لأنها تحبُّ إلى المدح الصفات التي قد لا تكونُ فيه في حين ينبغي أن يكونَ متحليًا بها، كما أنها تحبُّها إلى سائر الناس، فتجيء من هذه الناحية دعوةً إلى الكمال النفسي ومكارم الأخلاق. ولقد أشار شوقي إلى مذهبه في المديح حيث قال:

يُظهِرُ المدحُ رونقَ الرجلِ الما جد كالسيفِ يزدهي بالصقالِ
رُبَّ مدحٍ أذاعَ في الناسِ فضلًا وأتاهم بقدوةٍ ومثالِ
وثناءً على فتى عمِّ قومًا قيمةً العقدِ حسنُ بعضِ اللاكي

وعلى كلِّ فإنَّ ما تضمنته المدائحُ الشوقية من النصائح والحكم والإرشاد، ومطالبة المدح بما نرتاحُ إليه ونريدُه أن يكونَ عليه، لمَّا يسيغُ إغراقه وغلوه. وإذا كان قد مدح الكثيرين ممَّا حملَ البعض على اتهامه في إخلاصه وصحة اعتقاده في مديحه، فإنَّ الذين رثاهم، مخلصًا لهم بعد مماتهم؛ أوفرُّ عددًا، حتى إن مراثيه لتؤلَّف جزءًا كاملًا من ديوانه، وهذا دليل الوفاء، والبر بالأصدقاء، يؤيدُ ما نقول أن أحد وزراء مصر كان قد أتى عملاً لا يتفق وصدق الوطنية فنَدَّد شوقي بهذا العمل في إحدى قصائده، ولكن لما توفِّي ذلك الوزير رثاه شوقي رثاءً بليغًا، وأشار إلى فعلته السابقة إشارةً لطيفة فقال:

أخذتُك في الحياةِ على هناتٍ وأيُّ الناسِ ليسَ لهُ هناتُ
فصفحًا في الترابِ إذا التقينا ولوشيتِ العداوةُ والتراتُ
خلقتُ كأنني عيسى، حرامٌ على قلبي الضغينةُ والشماتُ

الوتر الخاص

وهناك وترٌ خامسٌ في قيثارة شوقي متنوعٌ الأنغام، أُسميه من باب التعميم وترَ الشاعر الخاص، المشدود إلى نياط قلبه، المتصل بدقائق شعوره، الناطق بخفي وجدانه، نعم إنَّ ما نظمه في الدين والوطن والاجتماعيات والوصفِ صادرٌ عن شعورٍ عميق، كما رأيتم في

شوقي

كثيرٍ مما أوردنا من شعره في هذه الأبواب، ولكنَّ قَوَّتِي النفس المتغلَّبَتين في تلك الأنواع من النظم هما العقل والخيال، أمَّا الشعورُ الخاص، وأمَّا العاطفةُ النفسية، فتظهران في شعره الليريقي أو الغنائي؛ في الغزل والنسيب، في مناجاته عهدَ الصبا، في بسمته لأولاده وحفدته، ودمعته على آبائه وأجداده، وتبسُّطه مع خلانه وأحبابه ... فهناك عواطف الحنان ولواعجُ الأشجان، وهناك خفقان الجوارح، ونبضاتُ الفؤاد.

ولكن هنا أيضًا رأى النُّقادُ مجالًا للمؤاخذة: فهذا النوع في نظرهم، قليلٌ في شعر شوقي، وهو على قَلْتِه، من النوع العاديِّ المطروق.

أمَّا قَلْتُهُ فَقَلَّةٌ نسبيةٌ؛ أي بالمقارنة بكثرة ما نظم، ولكن هذا القليل النسبي في الحقيقة كثيرٌ يؤلف وحده ديوانًا كاملًا.

وأمَّا رميُّه بالابتذال فقد يكون مرجعه إلى أنَّ شوقي لم يعمد إلى تحليل عواطف النفس وميولها وأهوائها تحليلًا دقيقًا، فقد رأينا أنَّ فلسفته في اجتماعياته فلسفةٌ سهلةٌ خاليةٌ من التعقيد، وكذلك جاء وصفُهُ لتلك العواطف والأهواء وصفًا طبيعيًا، خاليًا من الإيغال في التفصيل والتعمُّق في التحليل، وقد أعلن ذلك هو نفسهُ بألطف أسلوب يوم طَلِبَ إليه في بعض مجالس الأدب أن يشطرَّ بيتًا للبهاء زهير، فقال على البديهة:

يقولُ أناسٌ: لو وصفتَ لنا الهوى لعلَّ الذي لا يعرفُ الحبَّ يعرفُ
فقلتُ: لقد نقتُ الهوى ثمَّ نقتُهُ فوالله لا أدري الهوى كيف يوصفُ

وهو يعود إلى ذلك المعنى فيقول:

مُسْتَهَامٌ في هواهُ مُدَنَفٌ يترَضَى مُسْتَهَامًا مُدَنَفًا
يا خليليَّ صِفَا لي حيلةً وأرى الحيلةَ أن لا تصِفَا

وخلاصة القول: إنَّ الهوى هو ما يشعرُ به والسلام.

وعندي الهوى موصوفُهُ لا صفاتُهُ إذا سألوني: ما الهوى؟ قلتُ: ما بيا ...

وعند هذا الحد تقف قوة البشر في عرفه:

صوني جمالك عنا إننا بشر من التراب، وهذا الحسن روحاني

وهو في عزله، على وجه الإجمال، لا يخرج عن المعروف المألوف قديما عند الشعراء من وصف طول الليل ونواح الطير؛ والدمع والزفرات، والشباب والمشيب، والعيون والقلوب، والخدود والقود، والكناية بالدر عن الثغور، وبحلوة الليل عن سواد الشعر ... تشابيه وكنايات واستعارات قديمة، ولكنه يكسوها شيئاً من الجدة بالقلب الذي يفرغها فيه:

يا ثغرها، أمسيتُ كالـ غواصٍ أحلمُ بالجواهر
يا لحظها، من أمها أو من أبوها في الجأزر
يا شعرها، لا تسع في هتكى، فشأن الليل سائر
يا قدّها، حتّام تغـ دو عاذلاً وتروح جائر
وبأيّ ذنبٍ قد طعدت حشاي يا قدّ الكبائر

وإذا تكلم عن قلبه، قال كغيره من الشعراء إنه خفق في ضلوعه، وسال في دموعه، ولكنه يجدد المعنى بالمقاربة بين الضدين:

تسرّب في الدموع فقلت ولى وصفق في الضلوع فقلت ثابا

ومع ذلك فكثيراً ما نسمع لقلبه نبضة خاصة عندما يضرب على هذا الوتر متأماً، فيحرك أوتار القلوب، كقوله يُناجي من منفاه أحبابه وعهده الماضي في وطنه:

بالله يا نسمات النيل في السحر هل عندك عن الأحباب من خبر
هجتن لي لوعة في القلب كامنّة والجرح إن تعترضه نسمة يتر
ذكرت مصر ومن أهوى ومجلسنا على الجزيرة بين الجسر والنهر
وما شجاني إلا صوت ساقية تستقبل الليل بين النوح والعبر

شوقي

لا تجيش بين ضلوعه تلك العواطفُ النائرة المتمردة، تنبعث انبعاثَ الحمم المتقدة
من البراكين، وإن كان يقول:

ناقوسُ القلبِ يدقُّ لهُ وحنايا الأضلعِ معبدهُ

بل إنَّ العواطفَ التي تفيضُ من قلبه عواطفُ هادئةٍ هنيئةٍ، تسيلُ كجدولِ الماءِ
المتترق؛ فهو يدعو عادةً إلى الرأفةِ وكرمِ الطباع:

إنَّ الشجاعةَ في الرجالِ غلاظةُ ما لم يَزِنْها رأفةٌ وسخاءُ

فسبيلُ القلوبِ خيرُ السُّبُلِ:

يا مالكا رِقِّ الرقابِ ببأسِهِ هَلَّا اتَّخَذْتَ إلى القلوبِ سيلا

وأما الإحسان فهو عنوان الإنسانية:

المحسنون همُّ اللبا بُ وسائرُ الناسِ النَّفَايَه

يطلبُ الثوابَ للمحسنِ، فقيرا كان أم غنيا:

جبريلُ هلُّلُ في السماءِ وكبَّرِ واكتبُ ثوابَ المحسنينَ وسطَّرِ
سَلُّ للفقيرِ على تَكْرُمِهِ الغنى واطلبُ مزيدا في الرخاءِ لموسرِ

ويطلب من المحسن إليه مقابلة الإحسان بالشكران:

هل ترى أنت؟ فإني لم أجدُ كجميلِ الصنعِ بالشكرِ اقترانا
وإذا الدنيا خَلَّتْ من خَيْرِ وخلت من شاكِرِ هانتَ هوانا

شوقي شاعريته ومميزاتها

يعرف مردييه وخصومه:

اللّه يعلم ما نفسي بجاهلة مَنْ أهلُ خلَّتْها ممن يُعاديها

ولكنه يُحبُّ الترفُّقَ والمداراة:

تغابيتُ حتى صحبتُ الجهولَ وداريتُ حتى صحبتُ الحسودُ

يذهبُ مذهبُ زهير بن أبي سلمى القائل:

ومَنْ لم يصانعُ في أمورٍ كثيرةٍ يُضرُّسُ بأنيابٍ ويوطأُ بمنسَمِ

فيقول:

ومن لم يُقِمْ سترًا على عيبٍ غيره يَعْشُ مُستباحَ العرضِ منهتكِ السُّترِ

وهو لذلك لا يُضِمُّرُ ضغنًا ولا يحملُ حقْدًا:

سُجِبَتْ على الأحقادِ أذْيالُ الهوى ومَشَى على الضغنِ الودادُ الماحي

وإذا اختلفت الآراءُ فإنَّ اختلافها ينبغي ألاَّ يتسرَّبَ إلى القلوبِ، قال في إحياءِ ذكرى

قاسم أمين:

لقد اختلفنا والمُعا شرُّ قد يُخالِفُه العشيرُ

في الرأي تضطِغُنُ العقورُ لُ وليس تضطِغُنُ الصدورُ

أمَّا القول، حَسَنَ أو ساءَ، فهو مرآة النفس:

والقولُ إنَّ عَفَّ أو ساءتِ مواقِعُه صدى السريرةِ والآدابِ يحكيها

وعلى كلٍّ فهذه فطرتَه:

فطرتي، لا آخذُ القلبَ بها خُلِقَ الشاعرُ سمحاً طَرباً

أما برُّه بأبائه، وحذُّه على أولاده فمثال عاطفتي الأبوَّة والبنوَّة:
يلتفتُ إلى الماضي فيُنِيرُ منه ذكرياتٍ ضاحكةً أو باكية، قال في جدته:

| | |
|------------------------|--------------------------|
| أحنى عليَّ من أبي | لي جدَّةُ ترأفُ بي |
| تذهبُ فيه مذهبي | وكلُّ شيءٍ سرَّني |
| كلُّهم، لم تغضبِ | إن غَضِبَ الأهلُ عليَّ |
| مشيةَ المؤدِّبِ | مشى أبي يوماً إليَّ |
| ربِّ، وإن لم تَضربِ | غَضبانَ قد هدَّدَ بالضَّ |
| رَ جدَّتي من مَهْرَبِ | فلم أجدُ لي منه غَيْدَ |
| أنجو بها وأختبي | فجعلتني خَلَفها |
| بلهجةِ المؤنِّبِ: | وهي تقولُ لأبي |
| ذا الوالدِ المُعذِّبِ! | ويح له! ويح لهـ |
| يَصْنَعُ إذ أنت صَبِي؟ | ألم تَكُنْ تَصْنَعُ ما |

وقال في رثاءِ والده، وقد أفضى إلينا مرارًا أنها من قصائده المفضَّلة في نظره:

| | |
|----------------------------------|-----------------------------|
| لقي الموتَ كلانا مرَّتَيْنِ | أنا من ماتَ ومَنْ مات أنا |
| ثمَّ صرنا مهجَّةً في بدنينِ | نحنُ كُنَّا مهجَّةً في بدنِ |
| ثمَّ نلُفَى جثَّةً في كفنينِ | ثمَّ عدنا مهجَّةً في بدنِ |
| وبه نُبعثُ أولى البعثتينِ | ثمَّ نحيا في «عليٍّ» بعدنا |
| كلُّ هذا أصله من أبوينِ | انظرِ الكونَ وقلِّ في وصفه: |
| ونَعْمنا منهما في جنَّتَيْنِ | فقدنا الجنةَ في إيجابنا |
| ودُّهُ الصدقُ وودُّ الناسِ مِينُ | ما أبِي إلاَّ أَخُ فارقتُهُ |
| كانتِ الكسرةُ فيها كسرتينِ | طالما قمنا إلى مائدةٍ |
| وغسلنا بعد ذا فيه اليدينِ | وشربنا من إناءٍ واحدٍ |

شوقي شاعريته ومميزاتها

وتمشينا يدي في يده
من رآنا قال عنا أخوين
وإذا مت وأودعت الثرى
أنلقت حفرة أم حفرتين...؟

«ثم نحيا في علي بعدنا...» هكذا بعد أن بكى نفسه في أبيه الراحل، يراها تبعث في ابنه الناشئ، فيقول في نجله «علي»:

وأنت مني كروحي وأنت من أنت عندي

فينصرف إلى مناغاة أولاده، وكأنه يحوطهم بشعره كما يحوطهم بحنانه وبره،
فإذا مرض نجله «حسين» مرض معه، وعوفي معه:

جرحه كان بقلبي، يا أبا^{١٩} لا أنبئه بجرحي كيف كانا
لطف الله فعوفينا معاً وارتهنا لك بالشكر لسانا

وإذا وصف كريمته الطفلة قال:

كم خفق القلب لها عند البكا والضحك
فإن مشت فخطري يسبقها كالممسك

فاخر أمير الشعراء وباهى بشعره في الدين والوطن والحكمة، فقال تارة:

وإني لطير النبل لا طير غيره

وتارة:

إذا قلت شعراً فالقوافي حواضر

^{١٩} الخطاب موجه إلى الجراح الأكبر علي باشا إبراهيم.

شوقي

ولكننا نراه أكثر تواضعًا في هذا الباب؛ كأنه في ما أخرجَه من نغماتِ هذا الوتر الخاص، غزلًا ونسيبًا ووصفًا لنفسياتِه في مظاهرها المنوَّعة، يشكُّ في صحَّة تعبيره عن حقيقة شعوره ولواعج قلبه، فيتساءل:

والشعرُ دمْعٌ ووجدانٌ وعاطفةٌ يا ليتَ شعري هل قلتُ الذي أجدُ

قال أحدُ شعراءِ الفرنجة: «إن أبداعَ أشعاري هي التي في خاطري لم أنظمها». وقال شوقي:

هو لحنٌ مُضَيِّعٌ لا جوابًا قد عرفنا له ولا مُستقرًّا
لك في طيِّه حديثٌ غرامٌ ظلٌّ في خاطرِ الملحنِ سرًّا

وفي قيثارَة الشعرِ وترٌ ضربَ عليه الكثيرون من الشعراء، فلم يُوفِّقوا في الغالب إلا لاستخراج أصواتٍ منكرةٍ، مجونًا وهجاء، وقد قطعَ شوقي هذا الوتر من قيثارته، فكان عفَّ الإلهام كما كان عفَّ اللسان، حتى لتستطيع أن تُلقِي بديوانه جملةً بين يدي العذراء في خدرها، تطالعُه فلا تجد فيه ما يحمرُّ له وجهها خجلًا، وقد قال المرحوم إسماعيل صبري باشا — وهو من كنا نلقبُه بأستاذ الشعراء — في تقريره «الشوقيات»:

مرحبًا بالمقالِ سمحًا كريمًا لم يشبُه هجوٌ ولا إيذاءً

وقال شوقي نفسه في أدبِ السير والحديث:

وكُنْ في الطريقِ عفيفَ الخُطى شريفَ السماعِ كريمَ النَّظَرِ

وقد طبَّقَ هذه القاعدةَ على شعره، فخلت قيثارته من وترِ المجون والهجاء، مكتفياً بالأوتار الأخرى التي تغنى عليها، وقد جمعها في قوله:

والشعرُ ما لم يكنْ ذكري وعاطفةً أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

فنظم في سلك قصائده ذكرى الماضي، وعاطفةَ الحاضر والمستقبل، والحكمة الخالدة المشتركة بين كل زمان، هذا هو الشعرُ لا تقطيع وأوزان.

نقفُ عند هذا الحدِّ من عَرَضِ الأنغام التي بعثها شوقي من قيثاره الشعر، ولو رجعتم إلى دواوينه ورواياته لوجدتم الكثير، غير ما استشهدنا به، مما كان يصحُّ إيرادُه على سبيل الاستشهاد؛ فهناك منجمٌ من الألباس غنيٌّ، مهما نغترف منه يبقُ فيه القدرُ الوفير، فقريحةُ شوقي قريحةٌ خصبةٌ جوادةٌ فيأضة، امتدَّت شباكها إلى مختلفِ الحوادث والشئون، فعادت منها بكرائم المعاني في حرائر الألفاظ؛ فكان شعرُه بجملته سَجلاً للتاريخ قديمه وحديثه؛ نظمَ الكثير من وقائع التاريخ القديم شعراً فحماً، رصَّعه بالمواعظ والعبر، ودوَّن معظم حوادث التاريخ الحديث فصورَ أبطالها تصويراً يخلدُ منهم الأثر، فكان له القدرُ المعلى في الشعر السياسي والشعر القصصي، أما قالوا قديماً: إِنَّ الشعراءَ حَفَظَةُ الآثار، ونَقَلَةُ الأخبار؟ وكثيراً ما عمد إلى التاريخ يتخذُه منبراً، فيقفُ على أعواده معلماً أو منذراً: «رَبِّمَا عَلَّمَ حَيًّا مَنْ غَبَرَ.»

ولقد كنا نتمنى أن تُشرحَ قصائدهُ شرحاً تاريخياً يشتمل على بسط ما فيها من عوامل السياسة، ومن الإشارات إلى حوادثِ عصره لئلاَّ تفوتَ مراميها من يطالعها في آتي الزمن.

وكان شوقي كثيرَ المطالعة والدرس، يُمهِّدُ بهما لما يريدُ نظمه، خذوا مثلاً قصيدته «شكسبير» وقصيدته في «أرسطو»، تجدوا فيهما خلاصة مطالعةٍ دقيقة لروايات شاعر الإنجليز وفلسفة حكيم الأفاقة، ويبدو أثرُ هذا الاطلاع الواسع حتى في القصائد التي كانت بنتَ يومها؛ فإنه كان يغذيها بما أدَّخره في خاطره من قبل. وعلى هذا المنوال كان يتخيَّر موضوعه فيحتضنه يوماً أو شهراً في ذهنه، فيكسو المعاني وشي الكلام في فكره، ثمَّ يُملي قصيدته بالألفاظ كيِّسة، عذبة الإيقاع منسجمة الاتساق، فكأنه لا يعبر عن معانيه تعبيراً، بل يُغنيها غناءً يتملكُ اللبَّ ويستولي على الشعور، حتى إنه كثيراً ما تُنسِننا طلاوة الألفاظ، وحُسُنُ توقيعها في التركيب دقائق المعنى وبدائع التفصيل، فيتزلفُ نظمه إلى الأذان فيطربها كما تُطرب الألعان، ويحدثُ في القلوب نشوةً كنشوة بنتِ الحان، وكم له من القصائد تستهوي السامع دون تعليل هذا الاستهواء، فإذا طُلب إليه أن يتخيَّر منها بيتاً أو مقطعاً ما درى ما يختار، وكم رأينا من الذين لا يتذوقون الشعر يطربون لشعر شوقي طربهم للموسيقى، وهم في ذلك على حدِّ قول أبي تمام:

ولهم أفهمُ معانيها ولكن رَوَت كيدي فلم أجهلُ شجاها

أما جود قريحته فيتجلّى في كثرة ما نظم، وفي طرّقه الموضوع الواحد في أكثر من قصيدة، وهو في كلِّ مرّةٍ يجيءُ بالطريف الجديد، كما يتجلّى هذا الخصبُ في مدى العشرات من قصائده التي تولّف رواياتٍ كاملة، فما كان ينتهي من قصيدة حتى يُعالج غيرها، وكأنّه قد نسي الأولى، فكان خاطره كالروض في الربيع يوجد بالزهر متتابعًا، ويُضج الثمر متعاقبًا، أو كالبلبل يتوالى تغريده:

نَعْمُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَتَّى مِنْ مَعَانِي الرَّبِيعِ أَوْ الْحَانِئِ

فانقاد له النظم وأسلم قياده، وجرى الشعر على لسانه مجرى الكلام فتكاد لا تقرأ من نثره بضعةً أسطرٍ حتى تجد بيتًا أو شطرًا، فحقُّ له أن يقول:

إِذَا قُلْتُ شِعْرًا فَالْقَوَافِي حَوَاضِرُ

كما قال قديمًا الشاعرُ اللاتيني أوفيد:

كُلُّ قَوْلٍ حَاوَلْتُهُ كَانَ شِعْرًا^{٢٠}

ومن مظاهر هذا الخصب في القريحة واستنباط المعاني أنه طرق أبعد الموضوعات عن الشعر فاستخرج منها شعرًا طيبًا، كالنحلة تشتار عسلها من جميع أنواع الزهر، من ذلك قوله في طابع البريد:

| | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| ويؤافي النفوس مني رسولٌ | لم يكن خائناً ولا نمّاماً |
| يحملُ الغشَّ والنصيحةَ، والبغْ | ضياءَ والحُبِّ، والرضى والمَلاما |
| ويعي ما تُسرُّه من كلامٍ | ويؤدِّي كما وعاهُ الكلاما |
| ولقد أضحكُ العبوسَ بيومٍ | فيه أبكي المنعمَ البسّاماً |
| وأهني على النوى وأعري | وأفيدُ الحرمانَ والإنعاما |

^{٢٠} Quidquid tentabam dicere versus erat (OVIDE)

وقوله في وصف يد الطبيب الجراح:

مدّها كالأجلِ المبسوطِ في طلبِ البرءِ اجتهادًا وافتنانًا
تجدُ الفولاذَ فيها مُحسنًا أخذَ الرفقَ عليها والليانا
لم تخطُ للناسِ يومًا كفنًا إنما خاطت بقاءً وكيانا

ولما أعلن، عند إنشاء بنك مصر، أن ستُنشد في الاحتفال قصيدة لشوقي، سمعنا الكثيرين يقولون: «أين مجال الشعر مع ورق النقد والمال؟ وأي مرتع في المادة للخيال!» ولكن شاعرنا عرف أن يستنبط من المادة مثل هذه الأبيات:

بالعلمِ والمالِ يبني الناسُ ملكهمُ لم يُبنَ ملكٌ على جهلٍ وإقلالٍ
هاتوا الرجالَ وهاتوا المالَ واحتشدوا رأيًا لرأيٍ ومثقالًا لمثقالٍ
هذا هو الحجرُ الدرِّيُّ بينكمُ فابنوا بناءً قريشٍ بيتها العالي
دارٌ إذا نزلت فيها ودائعكم أودعتمُ الحبَّ أرضًا ذاتِ إغلالٍ
آمالُ مصرٍ إليها طالما طمحتُ هل تبخلون على مصرٍ بآمالٍ

فإذا كان قد جازى القدماء وحذا حذوهم في صياغة الشعر، وفي طراز مطالعه وأسلوب مقاطعه، فقد رأيتم كيف راض بحور القريض على أداء المعاني الجديدة ومعالجة الموضوعات العصرية، ولذلك قلنا — في مستهل هذا البحث: إنه لم يشد إلى قيثاره الشعر وترًا جديدًا، ولكنه استخرج من الأوتار التي ضرب عليها غيره من الشعراء أنغامًا مستجدةً عذبة المستمع، ولقد رأينا أمثلة كثيرة على ذلك في ما استشهدنا به له من الأبيات، وكثيرًا ما أصبح القديم جديدًا بفضل ما أكسبه من جمال اللفظ والتركيب، وروعة المعنى الذي ظهر بمظهر التجديد.

ولم يذهل شوقي عند هذا التجديد الذي شغف به الكثيرون فاتخذوه لهم شعارًا،

قال:

طلعوا على الوادي براية عصرهم ولكلِّ عصرٍ رايةٌ وشعارٌ

شوقي

ولكنه أراد هذا التجديد مقروناً بالأناة والتؤدة:

ومع المجدد بالأناة سلامةً ومع المجدد بالجماح عثارُ

فإن في الداعين إلى هذا المذهب من لا يفهمه إلا قائماً على الهدم والتقويض، وليس لديهم شيء من مُعدّات البناء والتشييد، فعلى مثل هذه الطائفة يحملُ الحملة الشديدة:

لا تحذُ حذو عصابة مفتونةٍ يجدون كلَّ قديمٍ شيءٍ مُنكرًا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عمراً
من كلِّ ماضٍ في القديم وهدمه وإذا تقدّم للبنائية قصراً
وأتى الحضارة بالصناعة رتّةً والعلم نزرًا والبيان مثرثراً

بسطنا في ما تقدّم صورةً لأمير الشعراء اقتبسنا الألوان والخطوط اللازمة لرسمها من أقواله، وتحليل شاعريته، وبيان مُميّزاتها، وإذا كان هناك من نقص أو عيب، فالذنب ذنب المصور لا ذنب الأصل، ولقد تكون هذه الصورة أكمل دلاله وأجلى رونقاً إذا قارناها بغيرها، فقد فُطر الإنسان على حبّ المقارنة فلا يدرك كُنه الأشياء إلا عن طريقها، وهذا صحيح في المعنويات صحته في الماديات، وقد نكون أكثر من سوانا شغفاً بذلك عندما نتكلّم عن أدبائنا وشعرائنا؛ فكلُّ أديبٍ أو شاعرٍ في نظرنا يمتُّ بنسبٍ إلى أحد الأدياء الأقدمين؛ وما كتب أحدٌ عن شوقي إلا قارنه بأحد أعلام الشعر الغابرين؛ فهو وأبو تمام في حسن الديباجة نظيران، وهو وجريز في براعة التمدح بالأمراء صنون؛ وهو المتنبي في الحكم كفؤان؛ وهو وابن هانئ في الفصاحة مثلان، ألم يُطلق اسمه على داره؟ وهو والبحتري في جودة الصناعة ندان، ألم يقل هو نفسه عن نفسه:

إن الذي قد ردها وأعادها في بردتيك أعادَ فيّ البحتري

وقد أعاد ذلك في معارضته لإحدى قصائد صبري باشا:

وتعارضتُ فيك القرائحُ وانبرى لأبي نواسَ البحتريَّ المفليقُ

ولا شكَّ أن في شعره شيئاً من جميع هؤلاء.^{٢١}
وقد تخطى بعضُ البحّاثِ أدباءَ العربِ إلى أدباءِ الفرنجة، فأوا فيه من فيكتور هوجو ولامرتين وألفرد ده موسّه، وهم أمراءُ الشعرِ في فرنسا يوم كان شوقي يطلبُ العلمَ في باريس.

وإذا كان قد حذو هؤلاء وأولئك من شعراءِ الشرقِ والغربِ في بعضِ مناجي النظم، فإنه يكاد يكون في مظاهرِ حياته وشاعريته صورةً أمينةً لشاعر عريقٍ في القَدَمِ، عاش منذ أربعة وعشرين قرناً، وفي بلدٍ غير البلاد العربية، ولكنَّ الشعرَ كالعلمِ لا يحصره زمن، ولا يحده وطن، فنتاج الفكرِ الإنسانيِّ مشتركٌ بين المفكرين، مهما اختلف جيلهم وإقليمهم.

ازدهرت مدينة مصر في أقدم عصور التاريخ المعروفة، فكانت أصلاً لسائر المدنيات، ثمَّ كان لمدينة قداماء اليونان وأدابهم من الأثر في تمدن سائر الأمم ما كان قبلها لأداب مصر، ولم يوفق العلماءُ لإماطة اللثام عن جميع أسرار الحضارة المصرية لتتعرّف تمام أثرها في آداب اليونان، ولكنه أثر بليغ ثابت، ثمَّ عادت مصر، على عهد البطالسة، تقتبس من الآداب اليونانية، كما أخذ العرب في العصر العباسي ينقلون عنها، وهكذا العلم والأدب مداولة بين الأمم والشعوب.

لذلك خطر ببالنا، ونحن نطالع شعرَ شوقي، اسمُ شاعرٍ يوناني، بل إنَّ شاعرنا هو الذي أوحى إلينا بهذا الخاطر لكثرة ما يُشير في شعره إلى اليونان وعلاقتهم بمصر وبالغرب:

ورأينا مصرًا تعلّمُ يونا نَ، ويونانَ تُقبِسُ العلمَ مصرًا

^{٢١} ترى فيه من نسج البحتري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار (خليل مطران).

شوقي

تلك تأتيك بالبيان نبياً عبقرياً، وتلك بالفن سحرا

ذلك شأن العلم، وذلك شأن اللغة أيضاً:

فتجارت اللغتان للـ غايات في الحسب الصميم
لغة من الإغريق قيِّمة ممة وأخرى من تميم

وكذلك شأن العلماء والأدباء من الفريقين:

أبقراط مثل ابن سينا الرئيس وهو مير مثل أبي الطيب

ولكن المصريين كانوا البادئين:

مشّت بمنازهم في الأرض روما ومن أنوارهم قبست أثينا

وهو يفاخر بظفره بحكمة اليونان:

ظفرت بيونان القديمة حكمتي

وقبل كل هذا ألم يقل في ترجمة حياته بعد أن ذكر أصول جدوده لأبيه وأمه: «أنا إذن عربي، تركي، يوناني، جركسي، أصول أربعة، في فرع مجتمعة، تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل.»

أما هذا الشاعر اليوناني الذي نرى صورته ماثلة في فقيدينا فهو الشاعر «بندار». لمحة إلى حياته تُرينا الشبه بين الشعارين:

كان بندار في عصره، كشوقي، يلقب بأمر الشعراء، وكانت إمارة الشعر قبله معقودة دائماً لأثينا، حتى انتزعها منها وجعلها في مدينة «ثيبه» وطنه، وقد أغدق عليه الأقبال والحكام العوارف والنعم، فنهج نهج الشعراء ممتدحاً بمآثر أولياء نعمته، غير أنه لم يُحجم في مدائحه عن التنديد بالظلم، والاستبداد معلناً أن الفضيلة والاستحقاق

هما، دون سواهما، من الخيرات الباقيات، وكان أدبه أدباً عفيفاً طاهراً شريفاً، وامتان شعره بالانسجام والنصاعة والجلال، ولقد تغنى بوطنه ومفاخره، ولكن ذلك لم يصرف نظره عن عيوب مواطنيه ومحاسن سائر الأوطان، وجاء في الأساطير المنقولة عن عصره أنه كان نائماً، وهو طفل، تحت شجرة، فأقبل النحل على ثغره يقطر فيه عسلاً، وذلك رمزُ العذوبة والحلاوة في شعره، أما موته فقد حسده عليه جميع الشعراء، فقد أدركته المنية، وهو في المسرح، بينما كانت العذارى ينشدن شعره، والشعب المحتشد يُصقّق طرباً.

وكذلك كان شوقي في حياته، وفي مماته أيضاً؛ فكلنا يعرف أنه في الليلة التي فارق فيها الحياة كانت إحدى المغنيات الشهيرات تُغني قصيدته: «علموه كيف يجفو فجفا»، وكان الجمهورُ يهلل ويكبر لروعة الشعر، وبعد وفاته ببضع ساعات كان شباب مصر يُصقّق متحمساً لآخر قصيدة نظمها شوقي لتحية همة الشباب في حفلة مشروع القرش ...

والآن وقد مات شوقي بعد أن مات حافظ، فإنَّ الناس يتساءلون عن مصير الشعر العربي ... ومن يُنكر أنَّ هذا الشعرَ قد مُني بخسارةٍ فادحةٍ بموت الشعارين الكبيرين، خسارةٍ شعرت بها مصر أكثر من سواها؛ لأنَّهما أجلساها الصدر في دولة الأدب، وشعرت بها مع مصر سائر الأقطار العربية؛ لأنَّهما كانا من مفاخر لسان العرب. أما التنبؤُ بمن سيخلف كلاَّ منهما في المكان الذي تبوَّأه في مملكة القريض والبيان، فليس من السهل ولا بالمستطاع، فشاعرُ مصر، بل شاعرُ العرب، مكنونٌ في ضمير الغيب قد تُبرِّزه الحوادثُ في غدنا القريب، ولا يعزبنَّ عن البال أن ما أدركه كلُّ منهما من الشهرة، وبعْد الصيتِ قد يكون طمس عبقریات كثيرة، ستنزل إلى الميدان بعد أن خلا من فارسية المعلمين، كما أن ما أصابه كلاهما من المنزلة الرفيعة في حياته، والإشادة بذكره بعد مماته، سيشحذُ القرائح والأذهان للمباراة في حلبة الشعر.

وليس من الحكمة والمنطق في شيء أن نندب الشعرَ والأدبَ بعد فقد دينك الشعارين، فالوادي الذي أنجب البارودي وصبري وحافظ وشوقي — ولا أذكرُ إلاَّ الأموات الذين عاصرناهم — سينجبُ غيرهم من عباقرة الشعرِ وأعلام الأدب، فمشعلُ الشعرِ لا ينضب

شوقي

زيتہ ولا يطفأ نورہ، بل ينتقل دائماً من يدٍ إلى يد، تغذّيه القلوبُ النابضة والنفوسُ
الحسّاسة، وخيرٌ ما يُقال في هذا المقام هذه الأبيات لشوقي:

قديمُ الشعاع كشمس النهارِ جديدٌ كمصباحِها المُلَهَبِ
أبقراطُ مثلُ ابنِ سينا الرئيسِ وهوميرُ مثلُ أبي الطيّبِ
وكلهمُ حجرٌ في البناءِ وغرسٌ من المثمرِ المُعقَبِ

